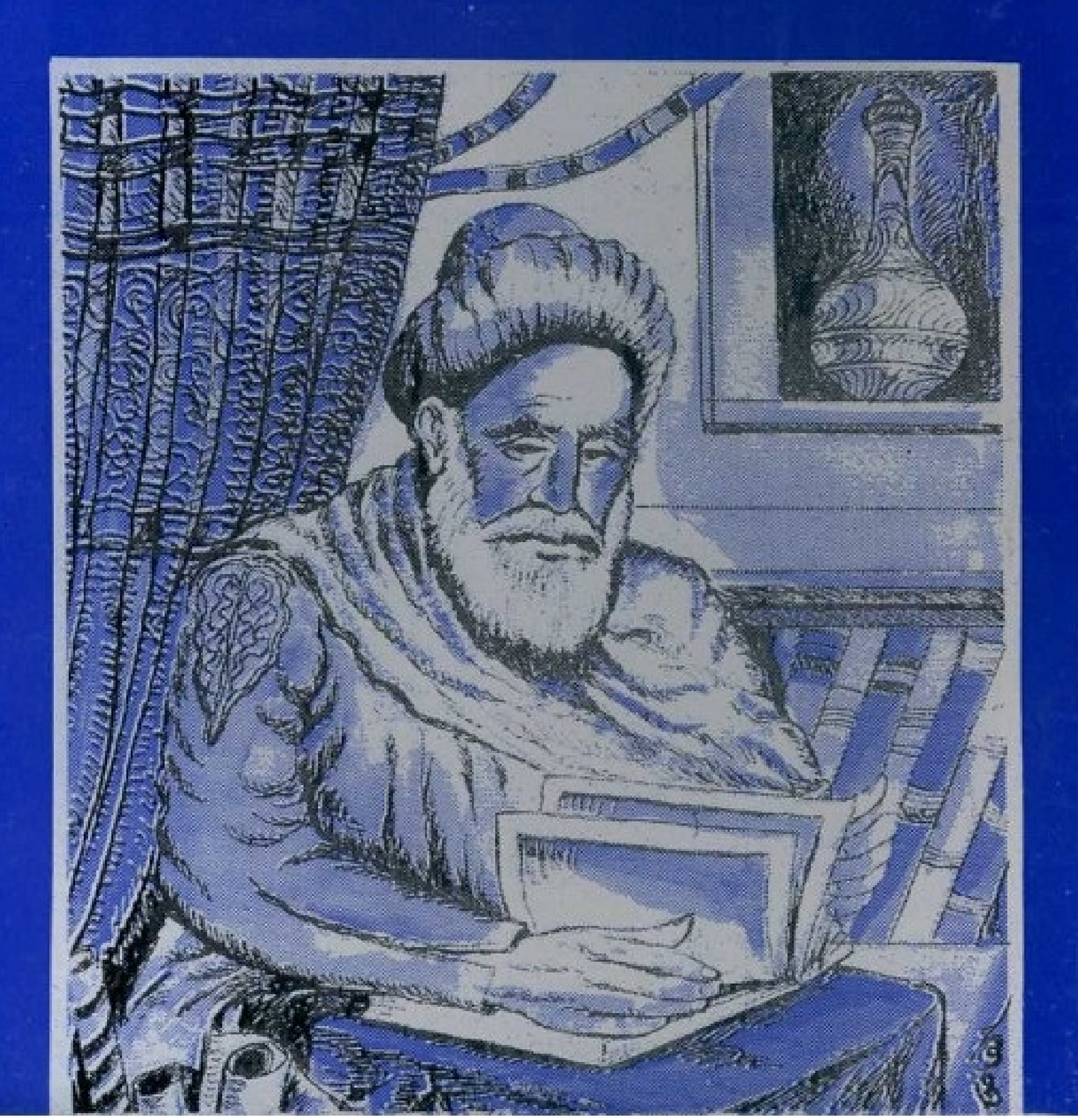
دكتور محمد عبد المنعم خفاجى

أبو الفتح الإسكندري

بطل مقامات بديع الزمان

وشخصيته المجهولة



دكتور محمد عبد المنعم خفاجي

أبو الفتح الإسكندري

بطل مقامات بديع الزمان وشخصيته المجهولة

الطبعة الأولى
١٩٩٦ م - ١٤١٦ هـ

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

أبو الفتح الاسكندرى

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــــــــدير

أبو الفتح الاسكندرى كما يعرفه علمـاء الأدب هـو البطـل فى مقامات بديع الزمان الهمـذانى ٠

وهو يقوم بالدور الرئيسى فى الأعمال الساسانية التى احترفها ، وأجاد تمثيلها ، انه هـو بطـل الرواية وصانعها ، أما الذى روى عنه كل ما قام به من بطولات مصنوعة فهـو الحارث بن هشام ٠

وأغلب الظن عند شتى الدارسين أنهما شخصيتان أسطوريتان ، ليس لهما نصيب من الواقـع التاريخى ٠

وهـذه القضية مرت عبر الأجيال دون دراسة أو تحقيق ، ومر بهـا الأدباء والباحثون المعـاصرون كذلك ، دون جـديد ، ودون رأى قاطـع فيها ؟ وان كـأن أحـد الباحثين المعاصرين قـد قارب الوصـول الى حلهـا والحكم فيها ، لكنـه ترك البـاب مفتوحاً ، وبنى آراؤه على الظـن والاحتمال ٠٠ ومن عجب أن يكـون ذلك بعـد صـدور كتـابى « ابو دلف عبقرى من ينبع » ممـا يرجـح انه اطـلع عليـه ، وقـرأ ما دونتـه فيـه ٠

وفى هـذا الكتاب درست هـذه القضـية من مختلف وجوهها ، وأبديت الرأى الحاسم فيها ، وهـو ما أعتز به ، وأعتبره الحل الأول والأخير فى هـذه المشكلة التى استعصى علي الأجيال حلها ٠

وبالله التوفيـق ٠٠

المؤلـف

الباب الأول

فــن المقــامة

الفصل الأول

فــن المقــامة فى أدبنــا

- ١ -

يقول الشريشى فى شرحه لمقامات الحريرى(١) : « المقامات المجالس ، واحدتها مقامة ، والحديث يجمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس ، ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى ، قال الأعلم : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير ، والبديع نفسه يبين ذلك بقوله فى المقامة الوعظية : « قال عيسى بن هشام : فقلت لبعض الحاضرين : من هذا ؟ فقال : شخص قد طرأ لا أعرفه ، فأصبر عليه الى آخر مقامته ، لعله ينبئ عن علامته » فالمقامات جمع مقامة ، وهى : كالمقام ، اسم مكان من قام بالمكان بمعنى أقام فيه ، وعلى هذا المعنى قول المسيب بن علس :

وكالمسك ترب مقاماتهم　　　وترب قبورهم أطيب

ثم توسع فى استعمال اللفظ ، فانتقل الى الدلالة على الجماعة المقيمة بالمكان ، وبهذا المعنى جاءت فى قول زهير بن أبى سلمى :

وفيهم مقامات حسان وجوههم　　　وأندية ينتابها القول والفعل

ثم انتقل مرة أخرى ليدل على الكلام الذى يلقى فى مجلس من المجالس ، كما استعملت كلمة مجلس فى هذا المعنى أيضا ، وسمى بها الشريف المرتضى دروسه التى كان يلقيها على تلاميذه ، ودونها فى أماليه ، فصولا سمى كل واحد منها مجلسا على هذا الاستعمال الأخير ، وعقد ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار » فصلاً لكلام الزهد بين أيدى الملوك ، وجعل عنوانه : « مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك » ، وقال الجاحظ فى كتابه « البخلاء » فيما قال : ويذكرون من الشعر الشاهد ، والمثل ، ومن الخبر الأيام والمقامات ·

---

(١) راجع كتابى الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى - ١٩٥٦ ·

هـذا هـو معنى المقـامة اللغـوى ، أما معنـاها الفنى فهـو هـذا الفن البليغ البديع المنمق ، الذى صيغ فى أسلوب قصصى لطيف ، ويمثل قصة وقعت لشخص أو اشخاص ، يتخيلهم الكاتب ، ويضع على السنتهم حوارا يجتهد فيه فى التحسين والتزيين والوشى ، ويلتزم فيه السجع أو يكثر منـه ، ويودعه ما أراد لـه ذوقـه من طرائف ووصـف للأخـلاق وروائع وملح وبدائع ، ونقـد للأشخاص والمجتمع ، والبـلاد والنـاس ..

ولقد كان من أثر اتصال كتاب العربية بالآداب القديمة ، وتنقلهم فى أفغانستان وخراسان وبلاد فارس ، أن اتصلوا بالحياة الاجتماعية ، وخالطوا العامة من الناس ، وسمعوا شيئا من أقاصيصهم وأحاديثهم ، وعرفوا بعض الأشخاص الذين يتحدث الناس بأوصافهم وأخلاقهم ، وكان بعض هؤلاء الكتاب يجيدون اللغـة الفارسية ، وربما كانوا يعجبون بهـا وبأساليبها ، فأخـذوا فى محاكاة بعض تلك الأحوال والكتـابة على نمطها باللغـة العربيـة ، وقـد كان الأثر الحيـاة الفارسـية قبـل هـذا العصر دخـل فى لغة العرب ، بمـا كتبه ابن المقفع وسـهل بن هارون وغيرهما ، فظهر اثر ذلك فى الكتابة النثرية ، فلمـا كان هـذا العصر ظهر أسلوب المقامات المحتوى على قصص قصيرة ، يصف فيها الكاتب أحـد الناس وأخلاقه ، ويذكر بهـا بعض الحوادث والأماكن بأسـلوب مسجع ظريف . وكان النثر الى هـذا العصر مقصورا على الرسائل وكتابة الدواوين والفصول الأدبية ، ولم يكن الأسلوب القصصى قـد تسرب بعـد الى الكتـابة العـربية ، فلمـا كتب بديع الزمان مقاماته ، كانت تلك المقامات نوعا جـديدا فى أساليب النثر العربى ، وسار على أسلوب الهمذانى من جاء بعـده من الكتاب أصحاب المقامات كالحـريرى وغـيره .

وواضح من المقـامات المروية عن البديع والحريرى أن الكدية (الشحاذة) أهم أغراضها ، ومن ثم قيـل عن المقامات انهـا تطلق على ما يقصه أهـل الكدية والشحاذون من الأدباء بلغـة عربية فصيحة تعـد فى أسلوبها من نماذج النثر الفنى الرفيع فى الأدب العربى .

وقد نسب الحريرى فى مقدمة مقاماته فضل ابتداع المقامات الى بديع الزمان وعلامة همذان ، ومن كتاب المقامات بعده : ابن نباته السعدى ، أبو الهيجاء الأصفهانى ، ابن الجوزى ، ابن الوردى ، الشيخ العطار ، أحمد فارس الشدياق ، اليازجى ، وعبد الله فكرى ، والمويلحى وغيرهم ·

ـ ٢ ـ

والمقامات صورة للقصة القصيرة ونموذج لها ، ففيها من القصة القصيرة العقدة وتحليل الشخصيات ·· والمقامات من أولى بذور النثر القصصى فى الأدب العربى لأنها ترمي الي تصوير بعض النفوس والشخصيات بطريق قصصى ولولا انصراف الكتاب الى الصناعة اللفظية لخطت المقامات خطوات واسعة فى سبيل النثر ·· على أن أسلوب المقامات انتشر بين الناس وذاع أثره لولوع الناس بالصناعة اللفظيةويشير أسلوب المقامات الى أن ظاهرة التقليد كانت طاغية،وان كانت من ناحية الموضوع محاولة لخلق القصة الفنية ، ومن ناحية الصياغة كانت تمثل عصر صاحبها وما عليه صورة الأدب من قوة أو ضعف · وتعتمد القصة الناجحة أكثر ما تعتمد على العقدة والعرض وعنصر الحركة والمفجاة والوقائع المثيرة ، والتفاصيل الدقيقة وتسجيل الوان من الحياة الاجتماعية وهذه الأصول متوفرة فى كثير من المقامات التى تدخل فى باب القصة من أوسع الأبواب · وكان من الطبيعى أن توجد المقامة فى الأدب العربى فهى قصة تروى ، ومن طبيعة الانسان أن يروى قصصه وقصص الآخرين · وقد ساعد رقى النثر الفنى فى القرن الرابع على كتابة القصة القصيرة أو فن المقامة بأسلوب رائع جذاب وان كان البعض يقول أن المقامات ربما كانت مقتبسة من أدب فارس ، ولكن البعض الآخر يؤكد على أن الأدب الفارسى لم يعرف فن المقامة قبل البديع ·· ولا فى عصره ·· وانما عرفت بعده بقرن من الزمان ·· وأولى مقامات كتبت بالفارسية كانت للقاضى حميد الدين البلخى · ويقول بعض النقاد الفارسيين أن لفظ مقامة هو من اختراع بديع الزمان · ويقول بعض المستشرقين أن أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان قد أوحتا الى بديع الزمان بفكرة المقامات ، ويذكر آخرون

ان قصص جحا من الآداب الفارسية والتركية هى التى أوحت لبديع الزمان بالمقامات ٠ وهـذا الكلام كله يحتاج الى دليل فالواقع أن الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية فى المجتمع العربى هى التي أوحت الي بديع الزمان بانشاء القصة القصيرة وكتابتها ٠

والحوار فى المقامة عنده يدور بين رجلين هما : عيسى بن هشام الراوية وأبو الفتح الاسكندرى البطل ٠٠ كلاهما شخص خيالى كما يقول أن عيسى بن هشام الراوية كان شـيخا للبديع ، وموضوع المقامات يتناول نقـد المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع وتصوير حياة المسلمين الاجتماعيـة والعقليـة فى هـذا العهـد ، ولعـل « البـديع » كان يقصـد بمقاماته الى كتابة نمـاذج أدبيـة رائعـة يجتذيها الشباب فى دراستهم وحياتهم الأدبية والمقامات تعكس قـدرة على الصياغة واختيار الألفاظ والتأنق فى الجمل والتعبير ، ألفاظها مختارة عـذبة ينـدر فيها الغريب وأسلوبها منمق يكثر فيه السجع والجناس والطباق وغير ذلك من ألوان البديع ، ويضمنه ما يناسب المقام من قرآن أو حديث ٠ ولكن يؤخـذ عليها ان الجانب الفنى فيها للقصـة غير متكامل فالحبـكة القصصية ضعيفة والحوادث غير متسلسلة ٠

ـ ٣ ـ

وقـد ادى ظهـور فـن المقامات فى الأدب العربى الى غنـائه فى الألفاظ والأساليب والأخيـلة والمعـانى ، وأضافت المقامات الى الأدب العربى فنـا ادبيـا جـديدا لم يكن لـه وجـود مي قبل هـو فن القصة القصيرة ، وقـدمت المقامات نمـاذج ادبيـة جميلة للأدباء ليحاكـوها ويسيروا على منوالها ممـا يساعد على قـوة الملكة والموهبة وقـد أحيت المقامات كثيرا من مفردات اللغـة واساليبها ومن صور الأداء والتعبير فيها ، وكذلك فان كتب المقامات وشروحها والدراسات التى وضعت حولها ٠٠ كل ذلك كان ثروة للغـة العربية وآدابها ، وقـد أسهمت المقامات فى بنـاء النهضة الأدبية الحـديثة فى مصر والعالم العربى ٠ كما ظهـر فـن ادبى جـديد متأثر بفـن المقامة وهـو ضرب من الانشاء فيه تشابه مـع المقامة وأن كان ليس منها اذ لا يعتمد خصائص القصة ولا جانبها الفنى وهـو مقالات قصار تعتمد على الايجاز وتقصـد الى

الوعظ الحكمة تقدم النصح والخبرة وثمرة التجربة الى القراء ولا تحتوى على الحوار او البطل .

وقد نمت المقامات وازدهرت فى بلاد خراسان وما وراء النهر ، تلك البلاد التى كانت قبل الفتح الاسلامى جزءا من الامبراطورية الفارسية ، فلما دخلها العرب وحكموها نشروا فيها دينهم ولغتهم وثقافتهم ، فأنجبت فحول العلماء والأدباء والشعراء . وقد اشتملت خراسان فى العهد الاسلامى على أربعة اقاليم عواصمها « نيسابور » و « مرو » و « هراة » و « بلخ » . وكانت هذه الاقاليم تحت حكم أربعة من آل سامان ، وهم من الفرس الذين عرف المأمون فضلهم ونبلهم ، فعينهم عليها حكاما ، وعرفت هذه بالدولة السامانية .

وفى عهد الدولة السامانية ظهرت حركة ادبية قوية من شعر ونثر فنى لعدد كبير من الأدباء يذكر التاريخ اسماءهم منسوبة الى بلادهم التى نشأوا بها ، فنقرأ أسماء « البلخى » و « الخوارزمى » و « الفارابى » و « الترمذى » و « البخارى » و « النيسابورى » و « الزمخشرى » وسواهم . وكانت بخارى مطلع نجوم الأدباء والشعراء والكتاب آنذاك ..

وقد صال « بديع الزمان » وجال فى كتابة المقامات ، واملى أربعمائة مقامة فى الكدية (الاستجداء) ولم يعثر منها الا على ثلاث وخمسين مقامة . وتوالى بعد « البديع » كتاب المقامات ومنهم ابن « نباته السعدى » ، و « أحمد بن فارس » ، و « السيوطى » ، و « الزمخشرى » وغيرهم ، ولكن لم يشتهر منها سوى مقامات « الحريرى » التى تعادل مقامات « بديع الزمان » فى خفة الروح ، وجمال الأسلوب ، وطلاوة التعبير .

ويقول الشريشى شارح مقامات الحريرى : « المقامات : المجالس واحدتها مقامة ، والحديث يجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس »(١) .

---

(٢) شرح الشريشى لمقامات الحريرى ص ١٠ ط بولاق .

وكان بديع الزمان الهمذانى أحد فحول المقامات الانشائية يعنى من كلمة « مقامة » معنى مجلس ، فقد جاء فى المقامة الوعظية ، عن عيسى بن هشام (وهو راوى مقاماته) : فقلت لبعض الحاضرين من هذا قال : غريب قد طرأ لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه الى آخر مقامته ، لعله ينبىء بعلامته .

والمقامة بهذا المعنى تتواءم كل المواءمة مع المعنى الأدبى الذى يرمى اليه الأدباء وهو الأسلوب الفحل والتعبير الجزل الذى ينتظم عقده الفاظا غريبة قوية ومعانى دقيقة فنية والوانا من السجع والمحسنات البديعية وروائع الشعر والحكم والأمثال يروى على لسان امرىء خيالى .

ـ ٤ ـ

وقد ذكر أبو اسحق الحصرى صاحب زهر الآداب فى ترجمته بديع الزمان الهمذانى أن أول من وضع أسس المقامات هو ابن دريد قال « ولما رأى البديع أن أبا بكر محمد بن دريد الأزدى أغرب باربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستنتجها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، واهداها للأفكار والضمائر فى معارض أعجمية والفاظ حوشية ، فجاء أكثرهما مما تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع حجبها الاسماع ، وتوسع فيها اذ تصرف فى الفاظها ومعانيها فى وجوه مختلفة ، وضروب متصرفة ، عارضها باربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها ، بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الاسكندرى وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافسان السحر »(٣) .

وروى الدكتور زكى مبارك أن البديع عارض ابن دريد مقامات تدانى فى عددها مقامات ابن دريد اذ يقول « أن بديع الزمان عارضه

---

(٣) زهر الآداب ج ١ ص ٢٣٥ .

بمقامات اربعين انشأها ابن دريد ، والمعارضات كانت تتقارب فى الكمية »(٤) ويفهم من قول الحصرى » « وأهداها للأفكار والضمائر فى معارض اعجمية » ان ابن دريد أنشأ أحاديثه فى بيئة فارسية . وأن البديع حين عارضه سمى أحاديثه مقامات ، وصنيع البديع الهمذانى فى هذا الفن اجلى وأروع ، والذين انشأوا بعد ذلك مقامات لم يصدروا الا عن ورد الهمذانى فتاثروا بطريقته واحتطبوا فى حبله .

ويذكر جورجى زيدان أن أبا الوليد أحمد بن فارس الرازى الأديب اللغوى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ صنع مقامات فيقول : « وله التقدم فى وضع المقامات ، لأنه كتب رسائل اقتبس منها العلماء صنعته وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذانى »(٥) بيد أن مقاماته ضاعت كما ضاعت مقامات ابن دريد .

وضياع مقامات ابن دريد وابن فارس جعل اكثر المؤرخين يعدون البديع أبا عذرة المقامات ومفترع بكارتها ، ولقد شيد البديع صرح مقاماته على الكدية(٦) وأدار الحديث بين شخصين ، جعل احدهما بطلا وهو أبو الفتح الاسكندرى ، والآخر راوية وهو عيسى بن هشام ، وعدد مقاماته التى بين أيدينا خمسون مقامة اجاد فيها الصلة ربطتها وسربالها ، ثم جاء بعد الهمذانى ابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ فدبج مقامات لم يتح لها أن تبلغ شأن مقامات البديع ولم تحظ بشهرة أو اعجاب ، ثم وضع أبو القاسم البغدادى بعده مقامات لم تلبث أن ذهبت صرخة فى واد واخنى عليها الذى اخنى على لبد(٧) ، ثم جاد الزمن بأبى محمد القاسم ابن على الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ فتفتحت اكمام بلاغته عن خمسين مقامة ، اعتمد فى تشييد صرحها على اديبين ـ على غرار الهمذاني ـ احدهما البطل والآخر الراوية أما البطل فليس خياليا ، وانما هو

---

(٤) النثر الفنى ج ١ ص ٢٠٦ .

(٥) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٠٩ ط دار الهلال سنة ١٩١٢ .

(٦) الكدية : معناها التسول .

(٧) ويظن أن أبا القاسم البغدادى هو كناية عن أبى حيان التوحيدى (ت ٤١٣ هـ) فهو صاحب هذه المقامات وصانعها .

شخصية لها ظل فى واقع الحياة ، فقد اتفق أن قدم البصرة اعرابى فصيح يسمى أبا زيد السروجى فنحله الحريرى وقائع مقاماته ، ونسب اليه القيام بأدوارها ، وأما الراوى فهو شخصية خيالية محضة(٨) ، ويسمى الحارث بن همام ويتغيا بذلك نفسه ، وقد شاعت مقامات الحريرى وطبقت شهرتها الافاق وحظيت بالقبول والوفاق وهزجت بها العصور وتغنت بها الدهور .

وجاء بعد الحريرى أدباء دبجوا مقامات لم يتح لها الشهرة وكانت أدنى الى المقالة منها الى المقامة مثل جار الله الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٧ هـ.وسمى مقاماته «اطباق الذهب» وهى حكم ومواعظ موجزة لا تمت الى القصة بوشيجة وليس لها بطل ولا راوية وقد عارضه شرف الدين الأصفهانى سماها « أطواق الذهب » .

ـ ٥ ـ

وكان كتاب المقامات فى هذه الآونة يجيدون الصنعة البديعية ويتجلى فى ادبهم طابعها ، وكانوا ينشئون المقامات للمفاخرة والتباهى بالتضلع فى اللغة والأدب والبراعة فى الغوص الي أعماق اللغة واستخراج دورها ولألئها ، والتحليق فى الآفاق لاصطياد الشوارد والأوابد من الكلمات الغريبة والعبارات الفحلة والأساليب الجزلة ، وجورجى زيدان يرى أن « المراد بالمقامات فى الأكثر التفنن فى صناعة الانشاء » وذكر الحريرى انه انشأها استجابة لرغبة من اشارته حكم وطاعته غنم ، وتلا فيها تلو البديع الذى عزا الى ابى الفتح الاسكندرية نشأتها ، والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ونكرة لا تعرف(٩) ..

ولقد شيد البديع صرح مقاماته على الكدية وجاء مقامات الحريرى

---

(٨) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ٢٧٥ .

(٩) مقامات الحريرى ص ٥ .

على هذا الفرار ، وكانت الكدية رائجة السوق فى هذه الأونة ، ولعل السبب هو ظلم الحكام وطغيانهم وفساد النظام الاجتماعى فى القرن الرابع والخامس .

وهكذا كانت المقامات مظهرا من مظاهر النشاط الأدبى الذى عبق أرجه وتضوع شذاه فى القرن الرابع الهجرى ، فان الكتاب تباروا بأفراس مضمرة فى حلبة الكتابة واقتعدوا غاربها ومتحوا من ينابيعها اللغوية .

فتجلى اثر ذلك فى ادبهم بهذه المقامات التى جاءت عقدا خلابا يزين جيد بنت عدنان ويخلب اللب والوجدان بما حفلت به من الكلمات اللغزية والفقرات القوية والاشعار الشاغرة والأمثال السائرة والحكم الرشيقة والعظات الانيفة وبتنوع خاص مقامات الحريرى التى استرعت الانظار واستلفتت الافكار ، واشرابت اليها أعناق الظامئين الى الأدب وعشاق الغريب فى لغة العرب واتخذوها ينبوعا ثرا للألفاظ الجزلة والعبارات الفحلة التى حافظت على ثروة اللغة وكانت موسوعة ادبية ينهل الظامئون الى الأدب من ينابيعها الثرة فينقعون الغلة ويشفون العلة .

- ٦ -

وكانت المقامات ارهاصا بتبلج اصباح القصة العربية فانها - فى الواقع - ليست سوى قصص قصيرة أشبه بالقصص التى تسمى عند الفرنج الدراما ، وقد تقيل طريقتها الأدباء ترفعهم نجاد التوفيق حينا وتخفضهم وهاد الأخفاق حينا آخر ، حتى كانت آخر المحاولات الموفقة على يد محمد المويلحى حين أخرج لنا كتابه الرائد « حديث عيسى بن هشام » فى أسلوب قصصى طريف يطوف بمحراب السجع فى كثير من التعبير ويجنح عن الوعورة فى كل تصوير وجعله على لسان راوية اتخذ اسمه عنوانا للكتاب ، فجاء صورة جلية للمقامات ، وان اختلف عنها ببضاضة الأسلوب والزهد فى الغريب .

ولعل من أروع المقامات التى حفل بها العصر الحديث مقامات ناصف اليازجى التى اسماها « مجمع البحرين » والتى بلغت ستين مقامة أستهلها بالبدوية واختتمها بالمقامة المقدسة وقدم لها فقال « اننى قد تطفلت على مقام اهل الأدب ، من ائمة العرب ٠٠ الى سهيل بن عباد ، وكلاهما « هى بن لي » مجهولة النسبة والبلاد ، وقد تحريت بتلفيق أحاديث تقتصر من شبه مقاماتهم على اللقب وقبست وقائعها الى ميمون ابن خزام أن أجمع فيها ما استطعت من الفوائد والقواعد والغرائب والشوارد والامثال والحكم والقصص التى يجرى بها القلم وتسعى لها القدم الى غير ذلك من نوادر التركيب ومحاسن الأساليب ، والاسماء التى لا يعثر عليها الا بعد جهد جهيد » ٠

ونحن اذا عرفنا أن القصة تعتمد على عنصر الحركة والمفاجآت والوقائع المثيرة ، والتفاصيل الدقيقة وتسجيل صور من واقع الحياة الاجتماعية ، ألفينا أن كثيرا من هذه السمات يتجلى فى كثير من هذه المقامات ٠

الفصل الثانى

رائد فن المقامة

- ١ -

ينسب الحريرى فى مقدمة مقاماته فضل ابتداء المقامات الى بديع الزمان ، وعلامة همذان ٠

وكذلك الثعالبى يجعل البديع أبا عذرتها واصل نشأتها ٠

ولكن الحصرى صاحب « زهر الآداب » يقول : ولما راى البديع ابا بكر بن دريد أعرب بأربعين حديثا ، وذكر انه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره ، وأهداها للأفكار والضمائر ، فى معارض عجمية ، والفاظ حوشية ، عارضها باربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا ، وتقطر حسنها(١) ٠ ويقول الدكتور زكى مبارك معلقا على هذا الكلام : مؤدى ذلك أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وانه حاكى فيها ابن دريد فى أحاديثه ، ولكن لا ينفى ذلك ان البديع له فضل فى نشأتها ٠٠ وظاهر أن هذه الأحاديث هى ما دونه صاحب الأمالى فى كتابه من احاديث ومجالس لغوية يرويه عن ابن دريد ، ويذهب البعض الى أن هذه الأحاديث المدونة فى « الأمالى »(٢) مصنوعة منتحلة علي ابن دريد ، والبعض الآخر يذهبون الى أن ابن دريد قد اخترع هذه الأحاديث ونحلها لبعض الأعراب ليجعل منها صورا غريبة تروى وتحكى وتحتذى ردا على

(١) ١ : ٢٣٥ زهر الآداب ٠ راجع كتابى الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى ٠

(٢) مثل حديث مصاد بن مذعور وما جرى له مع الجوارى الطوارق بالحصى الذى يذكر بالمقامة الرصافية للبديع وما فيها من حيل اللصوص ، ومثل مقام بعض الأعراب بالمسجد مستجديا ، مما يشبه مقامات عيسى بن هشام ، بالمساجد مكديا ٠

الشعوبيين وعلى الفرس الذين أخذوا يحيون لغتهم وأدب بلادهم القديم في عصر ابن دريد ، ولتكون هذه الأحاديث نماذج للتعليم(٣) . وينفى باحث أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامات كما عرف عند البديع(٤) . وكان ابن دريد كاتبا لآل ميكال ، وكانوا ولاة على فارس .

وذهب أحد الباحثين الى أن أبا المطهر الأزدى هو صاحب « حكاية أبي القاسم البغدادى » وأنها هي الأصل الذى احتذاء البديع في مقاماته ، وأن الأزدى هو مبتكر فن المقامة(٥) ، وشخصية أبي القاسم البغدادى في حكايته هي شخصية أبي الفتح الاسكندرى . وذلك مما يثبت لنا عدم صحته .

ـ ٢ ـ

ويروى لابن فارس الامام اللغوى المتوفي عام ٣٩٠ هـ مقامات ، ويقول فيه جورجى زيدان : « له فضل التقدم فى وضع المقامات ، لأنه كتب رسائل اقتبس منها العلماء نسقه ، وعليها اشتغل بديع الزمان . تلميذ ابن فارس » ويقول فيه ابن خلكان : لابن فارس رسائل أنيقة ومسائل فى اللغة اقتبس منها الحريرى صاحب المقامات ذلك الأسلوب ، ووضع المسائل الفقهية فى المقامة الطبية .

ثم جاء بديع الزمان ، فرويت له خمسون مقامة ، والراجح أنه أنشأ أربعمائة مقامة ، على ما روى الثعالبى وياقوت وابن خلكان ، ويؤكد ذلك البديع نفسه فى رسالته الى أبي المظفر ، حيث يقول : « ومن أملي من مقامات الكدية أربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين

---

(٣) ص ١٣٧ دراسات فى الأدب .

(٤) ص ٢٠٧ بديع الزمان للشكعة .

(٥) يبدو أن ذلك غير صحيح وأن صانع « حكاية ابى القاسم البغدادى هو ابو حيان التوحيدى .

لفظا ومعنى ، حقيق الانهاج لكشف غيوبه »(٦) ، والظاهر أن أكثر مقامات البديع قد ضاع ، ولم يبق الا ما تضمنته مقاماته المطبوعة ٠

ومن كتاب المقامات بعد البديع : ابن نباته السعدى م ٤٠٥ هـ ، والحريرى م ٥١٦ هـ ، وأبو الهيجاء الأصفهانى الذى ألف مقاماته عام ٥٤٩ هـ وتوفى فى القرن السادس ، وكذلك ابن الجوزى م ٥٩٧ هـ ، ثم ابن الوردى ، والشيخ العطار ، وأحمد فارس الشدياق ، وناصيف اليازجى ، وعبد الله فكرى ، وسواهم ٠

— ٣ —

والمقامات هى صورة للقصة القصيرة ، ونموذج لها ، ففيها من القصة القصيرة العقدة ، وتحليل الشخصيات(٧) ٠

وتحسب المقامات من أول بذور النثر القصصي في الأدب العربي لأنها ترمي الي تصرير بعض النفوس والشخصيات بطريق قصصى ، ولولا انصراف الكتاب الى الصناعة اللفظية لخطت المقامات خطوات واسعة فى سبيل النثر القصصى الذى يصور حياة النفوس والاجتماع ٠ على أن أسلوب المقامات تمشى في الأدب العربي ، وذاع أثره فى بلاد المشرق والمغرب ، لو لوع الناس بالصناعة اللفظية ٠

ويشير أسلوب المقامات ـ على اختلاف عصور أصحابها وامصارهم ـ الى أن ظاهرة التقليد كانت طاغية عليهم غالبا ، وأنها من ناحية الموضوع كانت محاولة كبيرة لخلق القصة الفنية ، ومن ناحية الصياغة كانت تمثل عصر صاحبها ، وما عليه صورة الأدب من قوة أو ضعف ، وبذلك تراها كانت تنحدر بانحدار الأدب جيلا اثر جيل ، من استمساك فى الأساليب ، الى هلهلة وركاكة جريا وراء البديع ومراكمة بعض زخارفه فوق بعض ٠

---

(٦) ٢٢٧ رسائل البديع ٠

(٧) ١ ٠ ٢٠٧ النثر الفنى لزكى مبارك ٠

وتعتمد القصة الناجحة أكثر ما تعتمد على العقـدة والعرض ، وعنصر الحركة والمفاجأة والوقائع المثيرة والتفاصيل الدقيقة ، وتسجيل ألوان من الحياة الاجتماعية ٠٠ وهـده الأصول متوافرة فى كثير من المقامات التى تدخل فى باب القصة من أوسع الأبواب ، ومن أمثلة ذلك المقامة الموصلية ، والأسـد وسواهما(٨) ٠

ـ ٤ ـ

ولكن لمـاذا نشأ فـن المقامة فى الأدب العربى ؟

١ ـ انه لمن الطبيعى أن توجـد المقـامة فى الأدب العربي فهي قصة قصيرة مسطرفة تروى ، وحوار يؤثر ، ومن طبيعة الانسان أن يقص قصصه وقصص الآخرين ، وقـد ساعد رقى النثر الفنى في القرن الرابع على كتابة القصة القصيرة أو فن المقامة بأسلوب رائع جـذاب مشرق ، ومن تمـام التشويق اختار البديع موضوع مقاماته فى الكدية، وقلده فى ذلك الحريرى وسواه ، والحريرى كذلك يقلـد البديع فى فن المقامة اذ أنشأ خمسين مقامة على نمط المروى للبديع(٩) ٠

٢ ـ ويذكر البعض أن المقامات مقتبسة من أصـل فارسى ، ولكن الباحثين المنصفين من عرب وفرس ينفـون أن تكـون المقـامات قـد وجـدت فى الأدب الفارسى قبل البديع ، اذ لم تعرف المقـامات فى الأدب الفارسى قبله ولا فى عصره ، وانما عرفت بعـده بقرن ونيف ، وأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميـد الدين البلخي الذى بدأ بانشائها عام ٥٥١ هـ ، وتوفى عام ٥٥٩ هـ ـ ١١٦٤ م كما يقول براون ،

(٨) راجع ٢٧٩ وما بعـدها ـ بديع الزمان للشكعة ٠

(٩) سبق أن قلنا ان البديع كتب اربعمائة مقامة ، ويرجح البعض أنه لم يمل الا أربعين مقامة عارض بها أحاديث ابن دريد الأربعين ، وهـذا خطـأ ، ومقامات البديع المطبوعة خمسون فى طبعـة الشيخ محمـد عبده ، واحـدى وخمسون فى طبعة الجوائب ، وثلاث وخمسون فى طبعة أخرى ، وقـد أسقط الامام محمد عبده المقامة الرصافية لمـا اشتملت عليه من فحش ومجون ٠

ويؤكد محمد تقى بهار فى كتابه « تاريخ تطور النثر الفارسي » أن لفظ مقامة من اختراع البديع وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان له صدى فى الفارسية ، وأن حميد الدين قلد البديع والحريرى فى مقاماته . ويذكر الأنورى اعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين هذه (١٠) .

٣ ـ يذكر بعض المستشرقين أن أساطير التوراة عند اليهود ، وقصة لقمان ، قد أوحتا الى بديع الزمان بفكرة المقامات ، وكذلك يذكر آخرون أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والتركية والعربية من ملهمات البديع لفن المقامات .. وهذا استنتاج لا يؤيده الدليل ، فالواقع أن الظروف السياسية والاجتماعية والعقلية ، والأدبية والفنية فى المجتمع العربى أوحت الى كاتب عربي هو البديع بانشاء القصة الصغيرة وكتابتها .

ـ ٥ ـ

سمات مقامات البديع :

١ ـ الحوار فى المقامة عند البديع يدور بين رجلين هما : عيسى ابن هشام الراوية ، وأبو الفتح الاسكندرى البطل . وكلاهما شخص خيالى مجهول كما يقول الحريرى ، ويذكر بعض الباحثين أن عيسى ابن هشام الراوية كان شيخا للبديع ، ومنهم مؤلف « تاريخ همذان » أبو شجاع شيرويه م ٥٠٥ هـ ، وينقل ذلك عنه ياقوت فى معجم الأدباء ، ولعل ذلك وهم نشأ من قول البديع فى مطلع مقاماته : حدثنا عيسى بن هشام .

٢ ـ وموضوع مقامات البديع هو الكدية ، ولكنها تتناول مع ذلك نقد المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع ، وتصوير حياة المسلمين الاجتماعية ، والعقلية فى هذا العهد ، تصويرا رائعا .

---

(١٠) راجع ٢١٢ ـ بديع الزمان للشكعة .

٣ ـ ولعل البديع كان يقصد بمقاماته الى كتابة نماذج ادبية فى رائعة يحتذيها الشباب فى دراستهم وحياتهم الأدبية ، او لعله كان يدل بما له من قدرة على صياغة الأساليب ، واختيار الألفاظ ، والتأنق فى الجمل والتعبير ٠ فالفاظها مختارة عذبة ، يندر فيها الغريب ، وأسلوبها منمق يكثر فيه انسجع والجناس والطباق ، وغيرها من الوان البديع ، ويضمنه بما يناسب المقام من : قرآن أو حديث أو حكمة أو مثل أو شعر ٠ ولكن يؤخذ عليها أن الجانب الفنى فيها للقصة غير متكامل ، فالحبكة القصصية ضعيفة ، والحوادث غير متسلسلة ، والحوار ينقصه التشويق ، والعقدة والمشكلة التى تنتهى بحلها القصة ضئيلة أو معدومة ٠

- ٦ -

مقامات الحريرى :

١ ـ وقد انشأ الحريرى (٤٤٦ ـ ٥١٦ هـ) خمسين مقامة وفق العدد الذى بقى لنا من مقامات البديع ، وبناها على الكدية ، كما فعل البديع ، ويقول فى مقدمتها : « وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية ناضبة وهموم ناصبة خمسين مقامة ، تحتوى على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، الى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبرة ، والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية ، مما امليت جميعه على لسان أبى زيد السروجي(١١) ، وأسندت روايته الي الحارث بن همام البصرى ٠

---

(١١) هو فيما يقال : المطهر بن سلام البصرى النحوى م ٥٤٠ هـ ، لزم الحريرى وتادب عليه وتخرج به وجعل مقاماته رواية على لسانه ، أما الحارث ابن همام فيعنى به نفسه ، وقيل أن الحريرى ذكر أن السروجى كان شحاذا بليغا وحكيما مليحا ، ورد من البصرة فوقف فى مسجد بنى حرام ، فسلم ثم سال الناس ٠

٢ - نالت مقامات الحريرى فى عصره وبعد عصره شهرة فائقة ، حتى قال فيها ياقوت فى (معجم الأدباء) : « لقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب عرفته ، فانه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة ، واتسعت له الالفاظ وانقادت له جوامع البراعة ، حتى أخذ بأزمتها وملك ربقتها ، فاختار الفاظها وأحسن نسقها ، حتى لو ادعى بها الاعجاز لما وجد من يدفع في صدره ، ولا يرد فى قوله ، لا يأتى بما يقاربها ، فضلا عن أن يأتي بمثلها ، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة ، وبعد الصيت ، والاتفاق فى استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر » ، ولمكانته صارت نموذجا فنيا تقتدى به الشعراء والأدباء فى صناعة الانشاء ، ويحفظه المتأدبون والشداة ، كسبا للموهبة وتنمية للذوق ·· وشرحها كثير من العلماء من بينهم الشريشى م ٦١٩ هـ ، وعبد اللطيف البغدادى م ٦٢٩ هـ ، والعكبرى م ٦١٦ هـ ، وابن الأنبارى م ٥٧٧ هـ ، وابن الخشاب م ٥٦٧ هـ ، وسواهم ·

٣ - ويذكر الحريرى أنه الفها استجابة لمن اشارته حكم وطاعته غنم ، وقد اختلف فى تفسير ذلك ، فقيل هو الخليفة المستظهر بالله كما فى رواية الشريشى ، أو شرف الدين أنوشروان ابن خالد أحد وزراء المسترشد بالله على ما روى ياقوت وابن خلكان ، وابن طباطبا ، أو ابن صدقة أحد وزراء المسترشد أيضا كما رواه ابن خلكان على نسخة كتبها الحريرى ، أو عامل البصرة وواليها فى بعض نقول الشريشى ، أو هو أحد أعيان البصرة فى نقل آخر له ·

٤ - والموضوعات التى بنى عليها الحريرى مقاماته ، هي كتلك التى اختارها البديع وشغل بها بطله ، من نقد وحوار أدبى ، وهداية وارشاد ، وجدل وحجاج ، ومعاياة والغاز ، مع ما يستتبع ذلك من وصف الأشخاص والمواضع ، واخراج البطل فى صور مختلفة من صور الساسانيين ، الذين انتشروا فى تلك الأزمان ، واحتالوا على الكدية والاستجداء باتخاذ مظاهر الوعاظ ، والعلماء ، والمفتين ، والغزاة ، وأبناء السبيل ، والأعراب ، والحواة ، والسحرة ، والمشعوذين ·

وقد اربى الحريرى فى ذلك على البديع فتزيد عليه في باب الالغاز بما اقتبسه عن ابن فارس ، من المعاياة بالمسائل الفقهية ، وزاد كذلك التلاعب بالصناعات اللفظية التى غالى فيها ، كنشاء رسالة تقرأ من اولها بوجه ، ومن آخرها بوجه ، او رسالة تقرأ ردا وطردا فلا يحيلها الانعكاس ، او رسالة تتكون من كلمات معجمة ، فمهملة ، فمعجمة ، فمهملة على التوالى من اولها الى آخرها ، أو رسالة يراعى فى تأليفها تتابع الاهمال والاعجام بين الحروف من غير اخلال ، الى اشباه ذلك من ضروب العبث الذى لا يفيد ، ولا يجدى منه المعنى أو اللفظ أى جدوى ، اللهم الا الضعف والتكلف الممقوت .

٥ - والصنعة البديعية عند الحريرى متكلفة ، فقد أجهد فيها نفسه ، وأعمل من أجلها خاطره ، وتأنق كل التأنق فى اختيار جملها ، ورصف أساليبها ، وأكثر فيها من البديع والوشى والزينة كثيرا ، وحلاها بحلل ثقيلة من السجع والجناس ، والتورية والطباق ، ولم يبال بالغريب من الألفاظ يتصيده ، والحوشى يستعمله ، مع ما أورد فيها من حكمة ومثل ، وما ضمن من شعر ، وما اقتبس من قرآن وسنة ، وقد أرهقت الصنعة معانيه ارهاقا شديدا .

- ٧ -

وهكذا اضافت المقامات الى الأدب العربى فنا أدبيا جديدا لم يكن له وجود من قبل هو فن القصة القصيرة .

وقدمت المقامات نماذج ادبية جميلة للأدباء والمتأدبين ليحتذوها ويحاكوها ويسيروا على منوالها ، مما يساعد على قوة الملكة والموهبة .

وقد أحيت المقامات كثيرا من مفردات اللغة واساليبها ، ومن صور الأداء والتعبير فيها .

وكتب المقامات وشروحها والدراسات التى وضعت حولها ، كل ذلك كان ثروة للغة العربية وأدابها .

وقد اسهمت المقامات فى بناء النهضة الأدبية الحديثة

فى مصر والعالم العربى ، اذ كانت المقامات من أوائل ما طبع في مصر ، فتداولتها الأيدى ، وتناولها القراء يتأدبون بها ، ويتخرجون عليها فى صناعة النثر .

وقد ظهر فن أدبى جديد متأثر بفن المقامة ، وهو ضرب من الانشاء فيه مشابه من المقامة ، وإن كان ليس منها ، اذ لا يعتمد خصائص القصة ولا جانبها الفنى ، وهو بمقالات قصار ، تعتمد على الايجاز ، وتقصد الى الوعظ والحكمة ، وتسدى النصح والخبرة وثمرة التجربة الى القراء ، وليس فيها حوار ولا لها راوية ولا بطل ، ولا تساق لغرض الكدية ، وهذا الفن نجده فى مثل كتاب أطواق الذهب لعبد المؤمن الأصفهانى ، وكتاب أطباق الذهب للزمخشرى ، وأسواق الذهب لأحمد شوقى .

وللمقامات بجانب هذه الحسنات آثار سيئة فى اللغة والأدب ، اذ كانت الصناعة البديعية اللفظية المتكلفة السائدة فيها ذات أثر على فن الأدب وأسلوبه وغلى ملكات المتأدبين والشداة ، وأشاعت فن الأحاجى فى الألغاز في الأدب وأبعدت الشباب .

وهذا يدلنا على فضل البديع وسبقه ، والحقيقة أن مقامات البديع اكثر انطباعا ، واشد انسجاما ، وابعد عن زخرف الصناعة وغريب اللغة . أما مقامات الحريرى فابدع فنونة ، وابرع خيالا ، والطف فكاهة ، واكثر أمثالا ، وقد نالت شهرة أكثر مما نالته مقامات البديع ، وترجمت الى اللغات الأوربية .

والحريرى على أية حال اشهر من كتب المقامات بعد البديع وقد نسج على منواله ، وكرر اغراضه بأسلوب جزل ، مع اكثار من الكلمات الحوشية ، وترديه للشعر القديم .

الفصل الثالث

ابن دريد ليس المبتكر لفن المقامات

لقد أشرت الى ذلك اشارات صغيرة فيما سبق ، وحول ذلك دارت بحوث ودراسات كثيرة ، بين من يجعل ابن دريد صاحب الفضل الأول فى نشأة فن المقامة ، ومن بينهم د. شوقى ضيف ومن ينفى ذلك ، ومن بينهم الأستاذ عباس الصالحى فى كتابه « فن المقامة » . وقد كتب الأستاذ محمد السيد الدغيم حول ذلك فى جريدة الحياة العربية التى تصدر من لندن مقالا فى ١٩٩٢/٧/٧ ينفى أن يكون لابن دريد فى نشأة المقامة أى فضل .

يقول الأستاذ محمد السيد : لقد ترجم لابن دريد الكثير من المؤلفين ، كطبقات الشافعية للسبكى (ت ٧٧٣ هـ/١٣٧١ م) ، وطبقات الشافعية لابن قاضى شبهة (٧٧٩ ـ ٨٥١ هـ/١٢٧٧ ـ ١٤٤٨ م) الذى قال فى المجلد الأول ، ص ١١٦ ، الترجمة رقم ٦٣ « أبو بكر الأزدى البصرى ... كان رأسا فى اللغة وأشعار العرب ، وله قصيدة طنانة يمدح بها الشافعى رضى الله عنه ... قال الدارقطنى : تكلموا فيه ... » . وذكره الامام الذهبى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م) فى كتابه « ميزان الاعتدال فى نقد الرجال » ، فأكد رواية الدارقطنى، وأضاف : « وقال أبو منصور الأزهرى اللغوى : دخلت على ابن دريد، « فرأيته سكران » ، وتوسع فى ترجمة ابن دريد الوزير جمال الدين على بن يوسف القفطى (ت ٦٢٤ هـ/١٢٢٧ م) فى كتابه « انباه الرواة على أنباه النحاة » فساق نسبه حتى أوصله الى : يشجب ابن يعرب بن قحطان ، وذكر أنه ولد فى « البصرة فى سكة صالح ، سنة ٢٢٣ هـ ، ونشأ بعمان ، وتنقل فى الجزائر البحرية ما بين البصرة وفارس ، وطلب الأدب ، وعلم نحو اللغة » . كما ذكر القفطى سؤالهم للدارقطنى ، عن ابن دريد « أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وقيل : أنه كان يتسامح فى الرواية عن المشايخ ، فيسند الى كل واحد ما يخطر له » . وذكر القفطى الأزهرى : « دخلت على ابن دريد فرأيته سكران ، فلم أعد اليه » . كما ذكر رواية ابن شاهين

(٢٩٧ - ٣٨٥ هـ/٩١٠ - ٩٩٥ م) الذى قال : « كنا ندخل على ابن دريد ونستحى مما نراه من العيدان المعلقة ، والشراب المصفى ، وقد كان جاوز التسعين سنة » .

ونستطيع أن نقرر فى ضوء ما سلف أن ابن دريد كان من علماء اللغة الشعراء ، ولم يكن ثقة فى الرواية ، وهذا ظاهر فى ميزان الاعتدال ، وتاريخ الاسلام للذهبى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٧٤ م) ولسان الميزان - ج/٥ ص ١٣٢ - ، لابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ هـ) ، وغير ذلك من الكتب الموثقة .

ولابن دريد من الكتب :

(١) الجمهرة فى اللغة ، (٢) كتاب السرج واللجام ، (٣) كتاب السحاب والغيث ، (٤) كتاب الملاحن ، (٥) كتاب الاشتقاق ، (٦) كتاب المجتبى ، (٧) الأخبار المنثورة ، (٨) رسالة من أفعل وفعلت (٩) أخبار أبى بكر بن دريد . وله كذلك المقصورة ، وله مرثية للشافعى (١٩٥/٢ تاريخ بغداد) .

وقد ذكرها ابن قاضى شهبة فى طبقات الشافعية ، ح ١/ ص : ١١٦ ، كما أوردها الاسنوى (٧٧٢ هـ/١٣٧١ م) فى كتابه طبقات الشافعية ص : ١٨٥ أيضا . وله مؤلفات أخرى :

(١) كتاب الخيل الكبير ، (٢) كتاب الخيل الصغير ، (٣) كتاب الأنواء ، (٤) ، كتاب المقتبس ، (٥) كتاب رواة العرب ، (٦) كتاب ما سئل عنه لفظا فأجاب عنه حفظا ، (٧) كتاب اللغات ، (٨) كتاب السلاح ، (٩) كتاب غريب القرآن الكريم - لم يتمه ، (١٠) كتاب أدب الكاتب ، على مثال كتاب ابن قتيبة ، ولم يجرده من المسودة ، فلم يخرج ، (١١) كتاب التوسط ... هذا ما ذكره القفطى فى أنباه الرواة ج ٣/ص ٩٦ - ٩٧ ، اضافة الى ما ذكره الكاتب فى مقاله ، كما نجد كتبا أخرى فى فهرست ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م) ، ص ٦١ - ٦٢ ، هى : (١٢) كتاب الوشاح ، وسماه صاحب

كشف الظنون : الوشاح فى الآداب ، (١٣) كتاب المقتنى ، (١٤) كتاب تقويم اللسان ، (١٥) كتاب المطـــر ، (١٦) كتاب الامالي ، ذكره حاجى خليفة فى كشف الظنون وقال : ان السيوطى اختصره فى كتاب سماه : « قطف الوريد » واضافة الى ما سبق نذكر : (١٧) ديوانه ، وقــد جمعه السيد محمد بدر الدين وطبع فى مطبعة لجنة التاليف والترجمة بمصر سنة ١٣٦٥ هـ/١٩٤٦ م ٠

وهــذا الايضــاح فى تبيين ما أغفــله الكتاب أو أكثر الباحثين من مؤلفات ابن دريد ، ومن أقوال العلمــاء فيه ، حتى نتمكن من تقــديم صورة واضحة عن ذلك الأديب اللغوى الذى قيل ان لــه أربعين مقامة فى روايات أبى على القالى : « حــدثنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال : ٠٠٠ » وما ذكره الحصرى (ت ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م) فى كتــابه زهر الآداب (ج ٢٠٧/١) ٠٠ وهــذه حجة ضعيفة ، فلربما وردت تلك الأحاديث « الأقاصيص » فى مؤلفــاته العــديدة ، ولا يشترط أن يكون الف كتــاباً خاصــا بذلك ، ورواية الحصرى ليست حجة لبعــد عهــده الزمنى ، ومكان اقامته الجغرافى ، وعــدم توثيق الرواية عن السابقين ٠

وكتب الدكتور زكى مبارك مقالا عنوانه : : اصلاح خطأ قــديم مرت عليه قرون فى نشأة فن المقامات » نشره فى مجلة « المقتطف » عــدد : نيسان (أبريل) سنة ١٩٣٠ م ، الصفحة : ٤١٨ — ٤٢٠ ، واتهم زكى مبارك الحريرى فى اذاعــة غلط نسبة ابداع فــن المقامات الى الهمذانى ، وقال : « وصــلت الى أن بديع الزمان ليس مبتكر فـــن المقامات ، وانما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ » ٠ واعتمــد مبارك على ما جاء فى « زهر الآداب » للحصرى ، وذكر « دهشـــة المسيو مارسيه » حين عرض عليه ذلك النص فى باريس ، كما ذكر دهشة طــه حسين الذى قال لــه : « ارجــع الى كتـــاب الأمالى للقالي ٠٠٠ » فرجع اليه مبارك وذكر « حــديث البنات اللاتى وصفن أزواجهن » (ج ١ ص ١٧) وحــديث العاشق الجميل (ج ١/ص ٣٨) وقصـــة الكـــاهن (ج ١/ص ١٣٤ طبـــع بـــولاق) والرواد الــذين أرسلتهم مذحج ، وقصة أبى نواس فى الحج ، واشار الى ان أصول

فـن المقـامة لم تكن فارسية » كما أشار الى ذلك فى بعض محاضراته الدكتور احمـد ضـيف » ٠

وكتب مبارك مقالا آخر بعنوان : « احاديث ابن دريد » نشر فى « المقتطف » عـدد : آيار (مايو) سنة ١٩٣٠ م ، صفحة ٥٦١ ـ ٥٦٤ ، وذكر فيه أن القالى روى عن ابن دريد « أكثر من ستين حديثا بعضها قصير ، وبعضها طويل ٠٠٠ » وقال : « اذا غضضنا النظـر عن الأحاديث القصيرة جـدا التى نقلها القالى عن ابن دريد وعددناها مما رواه عن شيوخه ، أو مما وقـع اليه من كلام الأعراب ، كان ما بقى من احاديثه المتشابهة فى القـدر والوضـع والاسـلوب قريبـا من الأربعين » ٠ ثم ذكر وضع ابن دريد واختراعه تلك الأحاديث معتمدا على ما ذكره الحصرى فى « زهر الآداب » ثم ذكر قصـة أبى نواس التى وصفها ابن دريد ، واعقب ذلك بذكر اهتمام « ابن دريد بتصوير الشمائل العـربية ، وكلفه بنوع خاص بتقـديم طائفة من الصور المختلفة عن أحلام النساء فى فهم الرجال ، واعجاب البنات باعمال الآباء ، وما يقع من الملاحاة بين الأزواج ، والتواصى بين الشباب والكهول ٠٠٠ » وأورد حـديث ابن دريد « على لسان أوس بن حارثة : المنية ولا الدنية ، والعتـاب قبـل العقـاب ٠٠٠ » وحـديث الرجـل الأعمى ـ من ازد السراة ـ مـع الشـاب الجميل « يا بن اخى : أن اغترارك بالشباب كالتـذاذك بسمادير الأحـلام ٠٠٠ » وذكر أن ابن دريد كان « يتعقب أعيان الجاهلية فينطقهم بألوان من الحوار تمثل ، ما كان يحب العـرب أن يعرف عن أسـلافهم من كرم الطبـاع ، وشرف الاحسـاب » ٠

وتعقيبا على ما كتبه زكى مبارك نشرت « المقتطف » فى « باب المراسـلة والمناظرة » ردا للمرحوم مصطفى صادق الرافعى ـ الطرابلسى أصلا والمصرى اقامة ـ وذلك فى عـدد آيار (مايو) سنة ١٩٣٠ ، الصفحة) ٥٨٨ ـ ٥٩٠ ، تحت عنـوان : ـ خطـأ فى اصلاح خطأ حول نشأة فن المقامات » ذكر فيه مقال الدكتور مبارك ودهشة مارسيه وطـه حسين لاكتشافه ، وعلق على ذلك قائلا : « فالكاتب كما ترى ملك من هـذا النص عنصر الدهشة ، وكذلك دهشت انا ، ولكن لا من النص بل

من أن قوما يدرسون للناس تاريخ الأدب ، وهم الى اليوم يجهلون عبارة فى كتاب طبع مرارا مع العقد الفريد ، وطبع نصفه ، وفيه هذا النص ، على حدة ٠٠٠

« ولم يذكر أحد فى أخبار ابن دريد أن له مقامات ، أو احاديث ، وكتبه محصورة معروفة ، وقد ولد البديع بعد وفاته بنحو ثلاثين سنة ، ولا تكون المعارضة عادة الا للمشهور المتداول ، والأحاديث الموضوعة على الأعراب كثيرة لم ينفرد بها ابن دريد واشهر وضاعها ابن الكلبى ، وابن دريد ينتهى اليه فى أكثر ما يرويه ٠٠٠ وكيف يعارض البديع أربعين حديثا بأربعمائة مقامة شرقت وغربت ، ثم لا يستفيض ذكر هذه المعارضة فى كتب المشرق ، ولا تراه منقولا الا عن رحل من اهل القيروان لا رحلة له ولا سند ، ولا رواية ، وانما يستطرف من كل كتاب ، ومن كل خبر ؟ ٠٠٠ وأن صاحب زهر الآداب يقول — فى أحاديث ابن دريد — أنه استنبطها من ينابيع صدره — يعنى ألفها — فهى من وضعه ، وليست من روايته ، وانه اذا كان كذلك لم يبق وجه لان يدخلها القالى فى كتابه ، ويلبس بها على الناس ، ويزعمها مروية بالسند عن ابن دريد الى الأصمعى ، أو ابن الكلبى ، ولو فعل لكان كذابا ، ويطلت الثقة به وبكتابه . هذا مضحك ٠٠٠ لا شك عندى أن البديع قلد غيره فى صنعة المقامات ، وهذه كانت طريقته ٠٠٠ وقد وقفت على خبر مصنوع كتب قبل البديع بنحو مائة سنة ، ولو حذف اسم صاحبه منه لما شك أحد أنه من كتابة البديع فى مقاماته ، اذ النسق هو هو ، والطريقة واحدة ٠٠ » .

رد زكى مبارك على الرافعى بعنوان « حول نشأة فن المقامات — رد على رد » ونشر فى « المقتطف » عدد حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٠ م ص ٨١ — ٨٢ . كما نشر فى العدد نفسه ص ٨٢ — ٨٥ ، تعليق على الموضوع لعبد القادر عاشور استعرض فيه نشأة المقامات وقال : « ان مدرسة ابن دريد هى الجسر الذى عبرته المقامات لتصل الى شاطىء الابداع فى التدوين والتصنيف ، وأن عصره هو الحد الفاصل بين المقامة فى المجلس ، والمقامة فى الكتاب ، وان ابن فارس

هو أول من دون فيها هذا التدوين المعروف فاطلق عليه لفظها ، وبعد أن حذا حذو ابن دريد فى احاديثه ، ثم جاء بعده تلميذه بديع الزمان فسار على نمطه ... هذه هى التى جعلت الحريري يقول ما يقول ويشهد لصاحبها بالفضل والابداع .

ونشرت فى العدد نفسه ص : ٨٥ - ٨٦ رسالة بعنوان « بيان حقيقة » تتضمن الاشارة الى أغلاط الحصرى في زهر الآداب » كتبت « على اثر قراءة لقول الأستاذ الرافعى فى المقالة التى رد بها على الدكتور زكي مبارك » .

ورد الرافعى فى « المقتطف » عدد : تموز (يوليو) ١٩٣٠ م ص : ٢١١ تحت عنوان : « حول نشأة فن المقامات » فقال : « ان ما خلط به الدكتور مبارك فى الكلام عن احاديث ابن دريد نقلا عن أستاذه الدكتور طه حسين كلام مضحك ... لا ريب ان فى رأس الدكتور وهما يمد له فى مزاعمه الخيالية .. » .

وللدكتور يوسف نور عوض - أستاذ كرسى الدراسات الأدبية بجامعتى سوكوتو وعنابة سابقا وسالفورد - كتاب « فن المقامات بين المشرق والمغرب » تناول فيه المؤثرات الأدبية والفنية فى صناعة المقامة (ص ٦٥) فذكر أثار : ابن دريد ، وابن فارس (ت ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م) ، ومقامات الزهاد لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) التى وردت فى المجلد الثانى من كتاب عيون الأخبار (ص ٣٣٣ - ٣٤٣) بعنوان : مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك وهى عشر مقامات ، ثم ذكر أثر النماذج الانسانية الفنية فى مقامات الهمذانى (ص : ٨٢) وهى كتاب البخلاء ورسالة التربيع والتدوير للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م) وحكاية أبى القاسم البغدادى ، لأبى المطهر الأزدى (ت فى القرن الرابع الهجرى) وقد نشرها آدم متز سنة ١٩٠٢ م ، وأشار اليها زكى مبارك فى النثر الفنى ٣٨٨/١ . وذكر الدكتور عوض أخيرا رسائل اخوان الصفا ، وهذا كله يحتاج الى مناقشة .

هكذا نجد أن كتابات ابن دريد لم تشكل بداية مدرسة المقامات، وقد فند هذا الزعم الكاتب عباس مصطفى الصالحى فى كتابه « فن المقامة بين الأصالة العربية والتطور القصصى » وخلص الى « أن الهمذانى هو الأديب الذى صاغ المقامات بشكلها النهائى المعروف حاليا » واستنتج عدم وجود تشابه بين مقامات الهمذانى وأحاديث ابن دريد وناقض رأى الدكتور شوقى ضيف بالتشابه ٠ وذكر أن الفرس والعبرانيين عرفوا فن المقامة بفضل اليهودى يهوذا سلومو الذى ترجم مقامات الحريرى للعبرية ٠

الفصل الرابع

الأزدى وحكايات أبى القاسم البغـدادى
وشـخصية الخـوارزمى

اصدر آدم ميتز هـذه الحكايات عـام ١٩٠٢ ونشرها هى نفسها الأستاذ عبـود الشالجى عام ١٩٨٠ فى بيروت بعنوان « الرسـالة البغـدادية » .

والحكايات هى رواية أبى المطهـر الأزدى عن أبى القاسـم البغـدادى ، وهما فى الحقيقة شخصيتان اسطوريتان ، ومن الطريف أن المقامات ابطالها كما يقال شخصيات اسطورية .

وقـد اثبت أبو حيان التوحيدى حكاية أبى القاسم البغـدادى فى مؤلفاته ، كحـديثه عن المغنيات البغـداديات الموجود فى كتـاب « الامتاع والمؤانسة » ، وقيـامه عـام ٣٦٠ هـ (ذكر تصحيف فى الحكايات عام ٣٠٦) باحصاء المغنين والمغنيات فى جانبى بغـداد ، مع جماعة من أهـل الكرخ ، وهـو مذكور أيضا فى كتاب « الامتاع والمؤانسة » ..

وقـد ذكر ياقـوت فى معجم الأدباء حكاية أبى القاسم البغـدادى أو الرسالة البغـدادية من ضمن مؤلفـات أبى حيـان التوحيـدى . فهى اذن لـه .

ويذكر بروكلمان فى « تاريخ الأدب العـربى (١٤٨ ج ٢) ان أبا المطهر اسمه ابن المطهر ، وحرف الى « أبى المطهر » ، وأنه هـو محمد بن أحمد المطهر الأزدى(١) وأنه ألف فى المـائة الخامسة للهجرة حكاية أبى القاسم البغـدادى التميمى(٢) مصورا بذلك نمـوذجا بغـداديا أصيلا من العادات والتقاليد ، فعـرض حيـاة بغـدادى طفيلى ظريف فصيح ذرب اللسان يقص مغامراته . وأحاديثه فى يوم كامل ببغـداد .

---

(١) تـوفى عـام ٤٨٥ هـ .

(٢) وهى التى نشرها آدم متيز عام ١٩٠٢ فى هايدلبرج عن نسخة فى المتحـف البريطـانى .

أبو بكـر الخـوارزمى

٣٢٣ ـ ٣٨٣ هـ

هـو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى الكاتب الشاعر العالم اللغـوى الأديب النحـوى الاخبارى ، الرحالة ، اديب خوارزم ، وبليـغ المشرق ، وصاحب الرسائل المشهورة .

كان اصـل آبائه من طبرستان ، وولـــد بخوارزم سنة ٣٢٣ هـ ونشأ بها . وكان متبحرا فى كل فـن من فنون العربية وخاصة الكتابة والشعر ، جاب الأقطار ، ودخـل الأمصار فى طلب العلم والادب ، وتقلب فى خـــدمة كثير من الملوك والأمراء والوزراء ، ولقى ســيف الدولة وخـدمه بالشـام ، ثم شرق الى بخـارى ونيمسـابور وسجستان وغيرها ، حتى وافى الصــاحب الـوزير بإصـبهان ، فكان من جملة المختصين به . ثم ذهب الى عضد الدولة بشيراز ، فصـدر عنه بالاموال الطائلة ، فاستوطن نيسابور ، وأقام بها للاملاء والتدريس ، فنكب نكبـة ســجن فيهـا ، وفـر الى الصـاحب ، ثم عـاد الى نيسـابور . قال الثعالبى : « وطاب عيشه بها الى ان رمى فى آخر أيامه بداهية من البديع الهمذانى ، وبلى بمساجلته ومناظرته ومناضلته ؛ وأعـان البديع عليه قـوم من الوجوه ، فلاقى ما لم يكن فى حسبانه ، وأنف من تلك الموقف ، وانخـذل انخـذالا شـديدا ، وكسف بالـــه ، ولم يحـل عليـه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ » .

ومنزلته فى الكتـابة لا تنكر ، ويمتـاز عن الصـاحب بجزلة اللفظ وفخـامته ، وكثير من النـاس يفضله عليه ، ويمتاز البديع عنه برقـة العبارة وقصر السجع ، وكان يتشيع ، ولـه فى ذلك رسائل بديعـة ، ولـه ديوان رسائل طبع فى الآســـتانة وغيرها ، وفيـــه الكثير من رسـائله البليغـة المطـولة .

بديع الزمان الهمذانى

٣٥٨ ـ ٣٩٨ هـ

- ١ -

هو بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذانى الكاتب المترسل ، والشاعر المبدع ، حافظ عصره ، وذكى دهود ، وقدوة الحريرى فى انشاء المقامات ، وقريع الخوارزمى فى المبتدءات والمكاتبات · نشأ بهمذان ودرس العربية والأدب على ابن فارس وغيره ، وورد على الصاحب فاقتبس من أدبه وماله ، ثم ضرب فى الأرض يتكسب بالأدب فأقام بنيسابور مدة أملى بها أربعمائة مقامة فى الجد والهزل نحلها أبا الفتح الاسكندرى محدثا عن عيسى بن هشام بلفظ أنيق ، وسجع رقيق ، وعلى منوالها نسج الحريرى مقاماته ، واحتذى حذوها ، واعترف بفضل السبق له ، ثم شجر بينه وبين الخوارزمى ما كان سببا لهبوب ريحه وبعد صيته ، اد لم يكن فى الحسبان أن أحدا يجترىء على الخوارزمى أو يتحكك به ، فانتصر لهذا قوم وتعصب لهذا آخرون ، واتفق أن مات فى أثناء ذلك خصمه ، فخلا له الجو عند الملوك والرؤساء ، وتجول فى حواضرهم · فلم يبق بلد فى خراسان الا دخله الى أن القى عصاه فى هراة ، وصاهر أحد أعيانها من العلماء ، فطاب عيشه ، ونعم باله ، ولكن المنية عاجلته وهو فى سن الأربعين ٣٩٨ هـ · قيل انه مات مسموما ، وقيل انه مات بالسكتة ، وعجل دفنه ، فأفلق فى قبره وسمع صوته بالليل · وأنه نبش قبره فوجدوه وقد قبض على لحيته ومات من هول القبر ·

وكان البديع أسرع أهل زمانه بديهة ، وأكثر شعره وكتابته مرتجل ، وكانت عبارته سهلة لينة قصيرة السجع · تشهد عذوبة لفظها ، وتدفق جملها ، بأن صاحبها قالها طبعا من غير ان يكدح خاطرا ، أو يتعمد صناعة ، ولا غرو فقد قيل : انه كان يلقى عليه القصيدة الفارسية فيترجمها فى الحال شعرا الى العربية . وكان لجريان

طبعه وتوقـد ذهنه وتمكنه من صناعته ، يتعمد ان يكتب الكتاب الـذى يقترح عليه ، فيبتدىء بآخر سطوره ، ثم هلم جرا الى الأول ويخرجه كأحسن شىء وأصلحه .

— ٢ —

ومقامات الهمذانى هى حكايات أو قصص قصيرة ، أنشأها بديع الزمان من الحوادث التى وقعت لـه أو شاهدها فى أثناء رحلاته الكثيرة فى بلاد خراسان وما جاورها . وقـد كتبها فى نيسابور بعـد أن عاشر كثيرا من الناس ، وخالط العامة والخاصـة هنـاك . ويظهر أن التسول كان ذائعاً وكانت حيل المتسول معروفة لديه ، وقـد عرف بعضهم واتصل به . وكان كثير من الأدباء اذ ذاك على هـذه الحـال . فيكتب مقـامـاته يصف فيها حالة هؤلاء ، وعزاها الى رجـل سماه أبا الفتح الاسكندرى ، ونسب روايتها الى رجـل آخر سماه عيسى بن هشام . وقـد يكون فى حياة أبى الفتح الاسكندرى شىء من صفات بديع الزمان نفسه ، وشىء من أخلاقه ، لأنه كان ممن يسأل بأدبه ، ولأن حياته كانت فى جملتها على هـذا النحـو من الرحلة والسؤال . وموضوع مقاماته أن رجـلا شحاذا أديبـا وهـو أبو الفتح الاسكندرى كان يجـول فى البلاد ويتفنن فى أساليب الاحتيـال للحصول على المـال . وكل مقـاماته التى تنيـف على الخمسين لا تخرج عن هـذا الغرض ، ولكنها تمتاز بدقـة أسلوبها ، وسلاسة ألفاظها واختيار عباراتها ، واشتمالها على كثير من المعانى الطريفة ، والألفـاظ اللغوية ، وعـدم التكلف الظاهر . حتى لقـد يبـدو أحيانا أن أسلوبها أقرب الى الكلام الفطرى منه الى التعمل والصنعة . وهى مسجوعة ، ولكن سجعها رفيـق سـهل ، احتـوى على كثير من المحسنات البديعية ، والاستعارة والمجاز .

الفصل الخامس

مقـــامات البـــديع

فى المقامة الأولى « القريضية » يذكر البديع أن عيسى بن هشام حدثه فقال : طرحتنى النوى مطارحها ، حتى وطئت جرجان الأقصى » ، وفيها لقى أبا الفتـــح الاسكندرى دون أن يعـرف كل منهما صاحبـه ، واخـذ أبو الفتح يحـدثه عن الشعراء ، ثم انصرف ، فقـــال عيسى ابن هشام فى نفسه : الاسكندرى والله .

والمقـامة الثانية هى الأزادية ، وفيها يستجدى ابو الفتح النـاس ومعـه عيـاله وأطفـاله .

والثالثة هى البلخية ، وفيها ينسب أبو الفتح نفسه الى قريش .

والرابعـة هى السجستانية .

والخامســة الكوفيـة .

والسادسة الأسـدية ، وفيها يقول عيسى بن هشام عن أبى الفتح : وانا أسـأل الله بقاءه ، حتى أرزق لقاءه ، واتعجب من قعود همته مـع حسن اكتسابه .

والســابعة هى الغيـلانية .

والثامنة الأذربيجانية ، وفيها يقول أبو الفتح عن نفسه : أنا جوالة البـلاد وجـوابه الأفـاق .

والتاسعة هى الجرجانية ، وفيها يقـــول ابو الفتح عن نفسه : انى امرؤ من اهـل الاسكندرية ، من الثغـور الأموية .

والعاشرة : الأصفهانية .

والحادية عشرة : الاهوازية .

والثانية عشرة : البغدادية .

والثالثة عشرة : البصرية .

والرابعة عشرة : الفزارية .

والخامسة عشرة : الجاحظية ، وفيها ينشد أبو الفتح شعرا له :
اسكندرية دارى الخ .

والسادسة عشرة . الكوفية .

والسابعة عشرة : البخارية . وفيها يقول عيسى بن هشام : غزوت الثغر سنة خمس وسبعين ، ويريد منه خمسا وسبعين وثلاثمائة بالضرورة .

والثامنةعشرة : القزوينية .

والتاسعة عشرة : الساسانية ، وتدور أحداثها فى دمشق ، وفيها يجعل أبا الفتح زعيم الكتيبة الساسانية .

والحادية والعشرون : الموصلية .

والثانية والعشرون : المضيرية ، وأحداثها فى البصرة .

والثالثة والعشرون : وفيها يقول أبو الفتح عن نفسه :
أنا من بلاد الاسكندرية .

والرابعة والعشرون : المارستانية ، ويريد مارستان البصرة وفيها يؤكد أن اسكندرية داره .

والخامسة والعشرون : وفيها يقول أبو الفتح عن نفسه :
أنا من ذوى الاسكندرية ٠

والسادسة والعشرون : الوعظية ٠

والسابعة والعشرون : الأسدية ٠

والثامنة والعشرون : العراقية ، وفيها يقول أبو الفتح : أنا عيسى الأصل ، اسكندرى الدار ٠

والتاسعة والعشرون : الحمدانية ٠ وفيها يقول عيسى بن هشام :
حضرت مجلس سيف الدولة يوما ، ويقول أبو الفتح عن نفسه : من الثغور الأموية ، والبلاد الاسكندرية ٠

والثلاثون : الرصافية ، ويذكرفيها حيل الساسانيين ، وفيها يقول عيسى بن هشام : فقام كهل منهم ٠

والحادية والثلاثون : المغزلية ٠

والثانية والثلاثون : الشيرازية ، وفيها يقول عيسى بن هشام :
دخل كهل قد غبر فى وجهه الفقر ٠

والثالثة والثلاثون : الحلوانية ٠

والرابعة والثلاثون : النهيدية ٠

والخامسة والثلاثون : الأبليسية ٠

والسادسة والثلاثون : الأرمينية ٠

والسابعة والثلاثون : ويقول فيها فضل الأمير على ابن العميد كفضل قريش على باهلة ٠

والثامنة والثلاثون : الخلفية ، ولعل النسبة الى خلف بن أحمد أمير نيسابور ٠

والتاسعة والثلاثون : النيسابورية ·

والأربعون : العلمية ، وفيها يذكر أبو الفتح ما سبق أن ذكره : اسكندرية دارى ·

والحادية والأربعون : الوصية ، وفيها يقول : لما جهز أبو الفتح ولده للتجارة ·

والثانية والأربعون : الصيمرية ، وفيها يقول عيسى بن هشام : قال محمد بن أسوان المعروف بأبى العنبس الصيمرى (٢٧٥ هـ) ·

والثالثة والأربعون : الدينارية ·

والرابعة والأربعون : الشعرية ·

والخامسة والأربعون : الملوكية ، وفيها ذكر سيف الدولة وذكر الأمير (خلف) ·

والسادسة والأربعون : الصفرية ·

والسابعة والأربعون : المارية ·

والثامنة والأربعون : التميمية أو الحرامية ·

والتاسعة والأربعون : الخمرية ·

والخمسون : المطلبية ·

والحادية والخمسون : البشرية ·

والتاسعة والثلاثون : النيسـابورية .

والأربعون : العلمية ، وفيها يذكر ابو الفتح ما سبق أن ذكره : اسكندرية دارى .

والحادية والأربعون : الوصـية ، وفيها يقـول : لما جهـز أبو الفتح ولـده للتجارة .

والثانية والأربعون : الصيمرية ، وفيها يقول عيسى بن هشام : قال محمد بن أسوان المعروف بأبى العنبس الصيمرى (٢٧٥ هـ) .

والثالثة والأربعون : الدينـارية .

والرابعة والأربعون : الشـعرية .

والخامسة والأربعون : الملوكية ، وفيها ذكر سـيف الدولة وذكر الأمير (خلف) .

والسادسة والأربعون : الصـفرية .

والسابعة والأربعون : المـارية .

والثامنة والأربعون : التميميـة أو الحـرامية .

والتاسعة والأربعون : الخمـرية .

والخمسون : المطليـة .

والحادية والخمسون : البشـرية .

الفصل السادس

تطــور فــن المقــامة
الحـــــــــريرى

٤٤٦ ـ ٥١٦ هـ

ـ ١ ـ

هو(١) أبو محمد القاسم على بن محمد بن عثمان الحريرى البصرى اللغوى النحوى الكاتب الشاعر صاحب المقامات المشهورة والبدائع المأثورة ، وهو عربى صميم من بنى حرام ٠ ولد ٤٤٦ هـ بمشان البصرة(٢) ، ونشأ بالبصرة وانقطع لتعلم العربية من اللغة والنحو والأدب ، حتى صار نادرة زمانه ولا سيما الانشاء ، فجارى البديع فى اختراع مقامات متخيلة القصص يأتى فيها على كثير من مواد اللغة وفنون البلاغة وأمثال العرب وحكمها ، واتفق أن اعرابيا فصيحا يسمى أبا زيد قدم البصرة من سروج(٣) ، فأعجب أهل البصرة به ، فنحله الحريرى وقائع مقاماته ، وسمى راويها الحارث ابن همام يريد نفسه أخذا من الحديث « كلكم حارث وكلكم همام » ، فالحارث : الكسب ٠ والهمام : كثير الاهتمام ٠ وأول مقامة صنفها هى المقمة الحرامية الثامنة والأربعون ، وعدة المقامات خمسون مقامة ، صنفها للوزير جمال الدين وزير المسترشد هكذا وجد بخطه ، وقيل : انه عملها للوزير انوشروان وزير المسترشد أيضا ، وقد استعظمها عليه حساده ، وزعموا أنها لمغربى قدم البصرة ومات بها ٠

ومن يطلع على مقاماته ويعرف مغازيها ومراميها وبلاغة

---

(١) ١٢٨ الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى الخفاجى ٠

(٢) هى قرية قريبة من البصرة ، كثيرة النخل ، وكان له فيها ١٨ الف نخلة ٠

(٣) بلد بالجزيرة ٠

عباراتها ، يعرف ما كان عليه الرجل من الفضل الجم والأدب الغزير. وقد شرحت المقامات عدة شروح وترجمت الى عدة لغات وغاية ما أخذه كتاب الفرنجة عليها : وحده مغزاها وأن أكثرها لا يخرج عن اكتساب المال بطرق خسيسة كالشحاذة والاستجداء ، وللحريرى العذر فى ذلك لأنه فرض روايتها عن الأعراب ، وهم كانوا لا يقدمون المدن الا منتجعين مستجدين ، وكان الحريرى على غناه قذرا وسخا قصيرا دميما ، يولع بنتف لحيته ، وله ديوان رسائل وشعر جميل وتآليف شريفة ، منها : درة الغواص فى أوهام الخواص ، وملحة الاعراب فى النحو ، والمقامات مطبوعة مشهورة .

- ٢ -

وقد نسج الحريرى(٤) على منوال الهمذائي في مقاماته ، فقلده فى أسلوبها ، ونظمها وموضوعاتها وصفات راويها ، فقد جعل أبا زيد السروجى الذى عزا اليه مقاماته ، مثل أبى الفتح الاسكندرى : رجلا أديبا محتالا ، وكأنما أخذ أوصافه من أوصاف ذلك الرجل ، وكانت موضوعاته أشبه بموضوعات مقامات البديع ، لأن الحريرى وصف أبا زيد السروجى بأنه فقير محتال ، يستعمل ذكاءه وقوة بيانه فى كسب عطف الناس عليه واستدرار أموالهم ، كما وصفه بأنه شاعر بليغ وخطيب مفوه ، وشحاذ ملح فى السؤال ، امتلأت نفسه بالاحتيال على الناس ، ينتقل من مكان الى مكان ، ويرحل من بلد الى بلد للسؤال ، وقد اتخذ ذلك حرفة له . وكل مقاماته وصف لنفس هذا الرجل ، أو صور لبعض الناس . ولا سيما الأدباء منهم ، وبيان لما هو كامن فى نفوسهم من أطماع وحيل ، واستعمال ما وهبوا من فصاحة وبلاغة فى ذلك . وقد أطنب الحريرى فى ذكر صفات أبى الفتح الاسكندرى. أما أسلوب مقاماته فأظهر شىء فيه تعمد السجع والصناعة اللفظية . ولكن للتكلف لا يظهر فى كثير منها ، بل لقد يكون السجع حلية

---

(٤) ولد أبو القاسم بن على الحريرى سنة ٤٤٦ هـ بقرب مدينة البصرة ونشأ بالبصرة ، فاتصل بكثير من علماء اللغة العربية واخذ عنهم فنونها وعرف كثيرا من مفرداتها ، حتى صار اماما فى ذلك . وألف كتبا فى اللغة منها : درة الغواس فى أوهام الخواس ، وكان شاعرا وادبيا وكاتبا ومؤلفا ، ومن اشهر ما كتب مقاماته المعروفة ، ويحسب الحريرى بهذه المقامات من اشهر أدباء العرب وأكبر كتابهم .

لكلامه ، وسببا لحسن ديباجته ، ولولا ذلك لكان كلامه غير مقبول لقلة معانيه أو تكرارها · ومن مميزات أسلوب هذه المقامات أنها جعبة ألفاظ لغوية ، وجمل مختارة ، وأمثال سائرة ، وأشعار رقيقة ، وقد ولع الحريري بالصناعة اللفظية ككل كتاب زمانه · وأكثر من أنواع البديع ولا سيما التورية والجناس ، ولكنه دل على نبوغ فائق في هذا النوع من الكتابة الفنية ·

ومن مقامة للحريري يوصي ابنه بالكدية والشحاذة وهي تصوير لفكر الساسانية وأدبهـا :

يابني ، اني جربت حقائق الأمور ، وبلوت تصاريف الدهور ، فرأيت المرء بنشبه لا بنسبه ، والفحص عن مكسبه لا عن حسبه ، وكنت سمعت أن المعايش امارة وتجارة ، وزراعة وصناعة ، فمارست هذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أخذت منها معيشة ولا استرغدت بها عيشة ، أما فرص الولايات ، وخلس الامارات ، فكأضغاث الأحلام ، والفيء المنتسخ بالظلام ، وناهيك غصة بمرارة الفطام ، اما بضائع التجارات ، فمرضة للمخاطرات ، وطعمة للغارات ، وما أشبهها بالطيور الطيارات · وأما اتخاذ الضياع ، والتصدي للازدراع ، فمنهكة للأعراض ، وقيود عائقة عن الارتكاض ، وقلما خلا بها عن اذلال ، أو رزق روح بال ، وأما حرف أولى الصناعات ، فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافقة في جميع الأوقات ، ومعظمها معصوب بشبيبة الحياة ، ولم أر ما هو بارد المغنم ، لذيذ المطعم ، وافي المكسب ، صافي المشرب ، الا الحرفة التي وضع ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ، وأضرم في الخافقين نارها ، وأوضح لبني غبراء منارها ، فشهدت وقائعها معلما ، واخترت سيماها لي ميسما · اذ كانت المتجر الذي لا يبور ، والمنهل الذي لا يغور ، والمصباح الذي يعشو اليه الجمهور ، أو يستصبح به العمي والعور ، وكان أصلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف ، ولا يخشون حمو لا سع ، ولا يدينون لدان وشاسع ، ولا يرهبون ممن برق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد · أنديتهم منزهة ، وقلوبهم مرفهة ، وطعمهم معجلة ، وأوقاتهم غير محجلة · أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون أوطانا ، ولا يتقون سلطانا ، ولا يمتيزون عما تغدو خماصا وتروح بطانا

ومن مقامات الحريرى المقامة الاسكندرانية ، التى تتضمن مخاصمة أبى زيد مـع امرأته امام القاضى مما يمثل حبـل الساسانيين وادبهم فمنهـا :

« ... فبينما انا عند حاكم الاسكندرية ، فى عشية عرية ، وقـد احضر مال الصـدقات ، ليفضه على ذوى الفاقات ، اذ دخـل شيخ عفرية، تعتله امرأة مصبية . فقالت : أيد الله القاضى ، وأدام به التراضى ، انى امـرأة من اكـرم جرثـومة ، واطهـر ارومـة ، وأشرف خـؤولة وعمومة ، ميسمى الصون ، وشيمتى الهون ، وخلتى نعم العون ، وبينى وبين جاراتى بون ، وكان ابى اذا خطبنى بناة المجـد ، وارباب الجـد ، سكنهم وبكتهم ، وعاف وصلتهم وصلتهم ، واحتج بأنه أعاهـد الله تعالى بحلفة ، الا يصاهر غير ذى حرفة ، فقيض القـدر لنصبى ووصبى ، أن حضر هـذا الخـدعة نادى أبى . فاقسم رهطه ، أنه وفق شرطة ، وادعى أنه طالمـا نظم درذ الى درة ، فباعها ببدرة . فاغتر أبى بزخرف محاله ، وزوجنيه قبـل اختبار حاله . فلمـا استخرجنى من كناسى ، ورحلنى عن أناسى ، ونقلنى الى كسره ، وحصلنى تجت أسره ، وجـدته قعـدة جثمة ، والفيته ضجعة نومة . وكنت صحتبه برياش وزى ، وأثاث ورئى . فما برح يبيعه فى سوق الهضم ، ويتلف ثمنه فى الخضم والقضم ، الى أن مزق مالى بأسره .

مقـــامات اليــــازجى

عالج الشيخ ناصيف اليازجى فن المقامة كما عالجـــه عـدد من معاصريه كاحمد البربيرى ، وابراهيم الأحـدب ، وعبد الله فكرى ، وفارس الشدياق وسواهم · الا أن اليازجى قـد تفوق عليهم ونال قصب السـبق فى هـذا المضمار بمقاماته الستين التى قلـد فيها الحريرى واحتذاه فى مقاماته ، حتى انه أطلق على احدى مقاماته « السروجية » نسبة الى بطل مقامات الحريرى « أبى زيد السروجى » وضمنها شطرا من أبياته هـو : « سروج ياناق فسيرى وخـدى » ··

وقـد اختار اليازجى لمقاماته بطلا أسماه ميمون بن خزام ، وراوية هـو سهيل بن عبـاد وجعـل معـه فى عـدد كبير من مقاماته ابيته ليـلى وغـلامه رجبـا ··

وكلا البطل والراوية لا يختلفان فى شىء عن بطل الحريرى وراويته ميمون بن خزام كالسروجى فى المكر والدهاء وذلاقة اللسان ·· وكذلك يتفق سهيل بن عبـاد مع الحارث بن همام فى حب العلم والأدب والتنقـل من بلـد الى بلـد ، والتقائه بالبطل وتعرفه عليه ، بعـد أن يحاول التخفى والتنكر · كما أن اليازجى يقلـد الحريرى فى اطلاق اسماء البلاد على مقاماته ·· بل يشاركه فى أسماء كثير من البـــلاد التى أطلقهـــا على مقاماته ، كالمقامة البدوية التى تسمى عند الحريرى « البكرية » أو « البـــدوية » والمقـامة الحجـازية والعمـانية والاسكندرية والمكيـة وغيرها ·

ويقلده فى انه يبـدأ مقاماته بمقامة يتعرف فيها سهيل بن عباد على ميمون بن خزام وينهيها بتوبة البطل وان كان اليازجى لا يكتفى بأن يحج بل يجعله يزور بيت المقـدس ، وكانه يصـنع ذلك ليرضى بذلك المسلمين والمسيحيين فى لبنان ، ويقلده فى ان البطل كثيرا ما يبدأ فى المقـــامة واعظـا ، وينتهى فيها الى الفسق ومعاقرة الشراب ··

وهـو مثل الحريرى قـد يختلق المشاجرات بين البطل وزوجتـه التى

هى ابنته ليلى ق كما يحتال على القضاة مثله فى أكثر من مقامة ويشاركه فى حشو مقاماته بالألغاز والصور البديعية كما يمزج مثله فى مقاماته بين الشعر والنثر ، وان كان شعره متكلفا غثا لا يرقى الى مستوى شعر الحريرى الرائع فى كثير من قصائده ، وتسود مقامات اليازجى ـ كما تسود مقامات الحريرى ـ روح التشاؤم، وسوء الظن بالناس ..

ويقال أن أول مقامة أنشأها هى المقامة العقيقية التى عرضها على أعضاء الجمعية السورية ، فأعجبوا بها ، فأنشأ ستين مقامة اطلق عليها (مجمع البحرين) أى بحر النثر والشعر . وقد قرظها عدد من شعراء وأدباء عصره ، كشهاب الدين العلوى الموصلى ، وسركيس ، وابراهيم كرامة ، وغيرهم .

واليازجى فى مقاماته يحذو حذو الحريرى ، والواقع انه قد تتبع خطاه وسار على نهجه فى الموضوع والأسلوب . فمن الموضوعات التى طرقها : الوعظ كما فى المقامة الأولى (العقيقية) ، وان لم تكن الأولى فى ترتيب المقامات المطبوعة .. وفيها يعظ ميمون بن خزام الناس قائلا : يكرام الناس والعشائر وأولى الأبصار والبصائر .. ارأيتم ما أحرج هذا البيت واسمج هذا الميت طاوا جد وكد واشتد واعتد وركب الأهوال واحتشد الأموال ، فانوروا أين ما جمع وهل أتى بشىء منه الى هذا المضطجع ... الخ .

ويصور فى بعضها حيل المكدين كادعاء ميمون انه خطب لابنه ، واحتياله فى تحصيل المهر كما فى المقامة « الحجازية » .. لكنه فى اغلب مقاماته يطرق موضوعا محببا الى نفسه ، هو موضوع اللغة ، وما يتصل بها من صور البديع ، وهو يحاول أن يتفوق على الحريرى ويبزه مغاليا فى ذلك .. فهو ينظم أراجيز يسجل فيها أسماء المطاعم والنيران والساعات والرياح وبرد العجوز كما فى المقامة « الخزرجية » ، أو يعرض منظومات فى الجناس ، كما فى المقامة « الرملية » ، او يضمنها مسائل فى دقائق النحو والصرف واراجيز فى علم النحو والعروض .

الباب الثاني

شخصية أبى الفتح الاسكندرى
بطل مقامات البديع

الفصل الأول

أبو الفتح ليس شخصية أسطورية

ـ ١ ـ

كان ابتكار البديع الهمذانى (٣٥٨ ـ ٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ ـ ١٠٠٧ م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقامة حدثا أدبيا جديدا فى الأدب العربى ·

فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها ، ونزعة القصة فيها ، وهذا الحوار الذى طالما دار بين بطلها أبى الفتح الاسكندرى وراويتها عيسى بن هشام ، كما بهرهم هذا النموذج الفنى الرفيع الذى تمثل فى شخصية الساسانى أبى الفتح البطل ·

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتانا شديدا · وليس هناك الا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة فى الأدب العربى ، صاحب الفضل فى انشائها(١) ، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاسم بن على البصرى (٤٤٦ ـ ٥١٦ هـ) فى مقدمة مقاماته ، فقد جعل ابتداع المقامات راجعا الى بديع الزمان ، وعلامة همذان ، وكذلك جعل الثعالبى فى «اليتيمة» البديع أبا عذرتها ، والواضع لأصولها وخطتها · ويتابعهم فى ذلك كثيرون ، منهم مارون عبود مثلا ، اذ يقول(٢) : أن خطة المقامات من عمل البديع ، فهو الذى ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف عام ، رغبنا نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع ·

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول(٣) : فتح البديع بابا فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى ·

---

(١) ٩٥ الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى الخفاجى ·

(٢) ٢٤ « بديع الزمان » لمارون عبود ·

(٣) ص ١٦ « مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته » ـ مازن مبارك ·

هــذا هو الرأى السائد ، ولكن الحصرى صاحب كتاب « زهــر الآداب » يذهب فى كتــابه(٤) الى أن البــديع اقتبس فن المقــامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك(٥) أن البديع ليس هــو المبتكر لفن المقــامة ، وأن كان لــه فضــل فى نشأتها ، وينفى مؤلف كتاب « بديع الزمان رافد القصــة القصيرة » وهــو مصطفى الشكعة(٦) أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صــلة بفن المقامة كما عرف عند البديع ٠

ويجعل آخرون البديع محتــــذيا حــــذو أســــتاذه ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فى رسائله الحوارية ٠

ويذكرون آخرون ، ومن بينهم شوقى ضيف(٧) ، أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخلاء والحيوان والمحاســن والأضــداد عن أهــل الكدية ، ومــع جواز فى المضمون ، فان شكل المقامة الفنى يبــقى جــديدا كل الجــدة عند البديع ٠ وهناك على أيو حال فرق بين البذرة والثمرة فى أى عمل أدبى أو غير أدبى ٠

ويجعل بعض المستشرقين أســاطير التــوراة عند اليهود وقصــة لقمان هما الملهمتين للبديع بفكره المقــامات ، ويذكر آخر أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر فى نشأة المقامة ، وهــذا كلــه كلام يعوزه الدليــل ، ولا تنهض به الحجة(٨) ٠

ويذهب آخرون الى أن المقامة مقتبسة من أصــل فارسى ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قــد وجــدت فى الأدب الفارسى قبــل بديع الزمان ، اذ لم تعرف المقامة فى الأدب الفارسى

---

(٤) ١ : ٢٣٥ « زهر الآداب » ٠

(٥) « النثر الفنى » لزكى مبارك ٠

(٦) ص ٢٠٧ « بديع الزمان » للشــكعة ٠

(٧) ٢٠ « المقــامة » لشوقى ضيف ـ طبع دار المعــارف ٠

(٨) راجع ١٤٦ « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » للمؤلــف ٠

الا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان ·· فأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخى الذى بدأ بكتابتها عام ٥٥١ هـ وتوفى بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨ هـ/١١٦٤ م) كما يقول براون ، ويؤكد محمد تقى بهار(٩) أن المقامة من اختراع البديع ، وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان له صداه فى الأدب الفارسى ، وان حميد الدين قلد البديع والحريرى فى مقاماته ، ويذكر الأنورى اعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين ·

ان هذه القصة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفنى الملتزم والصياغة الطريفة ، والصيغة الجديدة ، والفكرة الساسانية ، التى دعيت مقامة ، قد أنشأها بديع الزمان الهمذانى لتجاوبه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة فى عصره ·

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانيا هو أبو الفتح الاسكندرى ، وهو الذى مثل كل أدوارها ، ونهض بجميع فصولها ، وقام بكل احداثها ·

وشخصية أبى الفتح - كما تبدو من خلال المقامات - شخصية رائعة حقا ، فهو بطل للموقف كله فى المقامة ، وهو - كما يصوره الهمذانى - عالم واديب وشاعر ، وهو ناقد بليغ ، ومغامر محتال ماهر ، مشرد فى الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد أمامه الا الكدية والاحتيال بكل اسلوب من أجل المال أو الطعام · وهو الى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها ، عركها وعركته ، يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية ويهز الناس بفصاحته وبلاغته ·

وكنية أبى الفتح لعل البديع رمز بها الى فتوحات هذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية ·

أما وصف الاسكندرى الذى لازمه فقد يكون معززا لذلك المعنى على انه نسبة الى الاسكندر ، فتكون فتوحات أبى الفتح فى أموال

---

(٩) « تاريخ تطور النثر الفارسى » محمد تقى بهار ·

الناس شبيهة بفتوحات الاسكندر · وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر فى مقاماته قوله « اسكندرية دارى »(١٠) ، نسبة الى الاسكندرية لا الى الاسكندر الأكبر المقدونى (٢٥٦ - ٣٢٣ ق م) ·· ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين ، فتكون نسبته الى الاسكندرية مقصودا بها الرمز الى شبهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الاسكندر التى تنتسب اليه مدينته ·

ويقودنا ذلك الى التساؤل : أى اسكندرية كان يعنى البديع ، وكان ينتسب اليها أبو الفتح الساسانى ؟

فى المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثا عن نفسه : انى امرؤ من أهل الاسكندرية من الثغور الأموية · وفى المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية · ويكرر أبو الفتح نسبته الى الاسكندرية فى مواضع كثيرة أخرى

فاذا رجعنا الى ياقوت(١١) وجدناه يذكر أن الاسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعده ، فمنها : اسكندرية مصر ، والاسكندرية التى صار اسمها سمرقند ، والتى صارت مرو ، والتى سميت بعد باسم بلخ ، واسكندرية الأندلس التى على النهر الأعظم - نهر اشبيلية - وهى التى رجحها الامام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس فى القرن الرابع الهجرى عصر البديع ، الا أنى وجدت رحالة عربيا فى القرن الرابع - هو ابن دلف - يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند ، ويقول عنها : ان الخليفة الأموى مقيم بها(١٢) ، فهل كانت هذه المدينة قديما تسمى الاسكندرية أيضا ، ليصبح أمامنا احتمال

---

(١٠) راجع مثلا فى المقامة الأربعين - العلمية - قول البديع :
اسكندرية دارى   لو قر فيها قرارى

(١١) ٢٣٥/١ معجم البلدان ·

(١٢) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٤٠٩/٥ معجم البلدان·

جـديد آخر ، ويذكـر باحـث عراقى أن الاسـكندرية بين بغـداد والحلة(١٣) . ولكن ما صلتها اذن بالثغور الأموية ؟ .

ويذهب عبد الوهاب عزام الى أن صحة الكلمة « الآموية » نسبة الى نهر آموى(١٤) - جيحون - وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة هى مدينة الاسـكندية على نهر آموى .

ومـع ذلك كلـه فلا نزال نسير فى بيداء سحيقة .

فمن هـو ابن الفتـح الاسكندرى اذا ؟

١ - هنـاك رأى سـائد أنه شخصية أسطورية خيـالية محضـة ، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريرى فى مقـدمة مقاماته : كلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . وهـذا ما رجحته منذ عشرين عاما فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر السيأسى الثانى »(١٥) . وؤكد ذلك المستشرق الفرنسى ايوار ، فيقول : وضـع البديع شخصا خياليا ابتكره وسماه أبا الفتـح ، وذهب بعض الباحثين الى أن عيسى بن هشام راوية المقامات كان شـيخا للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩ هـ) مؤلف تاريخ همـذان ، وينقـل ذلك عنه ياقوت فى معجم الأدباء ، ولعـل ذلك وهم ناشىء من قـول البديع فى مطلع كل مقـامة من مقـاماته : حـدثنا عيسى بن هشام . ولـو ذهبنا الى أن أبا الفتح هـو الذى كان أستاذا للبديع لكان ذلك أكثر صـلة بالبحث ، وأكبر انطباقا على الموضوع .

وممن ذهب الى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب « بديع

---

(١٣) يعـد رسالة ماجستير عن مقامات الحريرى ، واسمة طارق العوسج وهـو مدرس بمكة المـكرمة منذ سنوات .

(١٤) ٢٣٤ بديع الزمان للشـكعة نقـلا عن محاضرات عـزام فى كليـة الآداب عام ١٩٤٤ م .

(١٥) ص ١٤٧ الكتـاب المذكـور .

الزمان » الدكتور الشكعة الذى يقول : حاولنا أن نجد لبطلى المقامات صدى تاريخيا فلم نعثر لهما على أثر والغالب أنهما من ابتكار خيال البديع نفسه(١٦) ٠

٢ - وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ، ويذهب الى ذلك بعض المستشرقين ، الا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين ، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية ٠

وأنا معهم فى ذلك ٠ ولكنى أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبى الفتح بطل المقامات البديعية ٠

ويذهب باحث عراقى(١٧) سبق الاشارة اليه الى أن أبا الفتح هو البديع نفسه ، ومن قبل قلت ذلك فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١٨) حيث ذكرت أنه قد يكون فى حياة أبى الفتح شىء من صفات البديع نفسه ، وشىء من أخلاقه ، ولكنى أخالف ذلك اليوم ، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل ٠

ويذهب باحث آخر(١٩) الى أن الكدية أو الساسانية التى كانت صناعة أبى الفتح « نجد من أعلامها فى عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة : كابن الحجاج (ت ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (ت ٣٨٥ هـ) وأبى الورد ، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبى حيان التوحيدى ، بل البديع نفسه ٠ ومن يشبهه كل الشبه كأبى دلف والأحنف العكبرى » ٠٠ ومجمل هذا الرأى أن أشباه أبى الفتح الاسكندرى كثيرون فى عصر البديع ، وأن أقربهم شبها به هو أبو دلف والأحنف ٠ وهذا الرأى لا يأتى لنا بجديد ولا بأمر مؤكد فى البحث على أية

---

(١٦) بديع الزمان ص ٢٣٢ ٠

(١٧) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريرى ٠

(١٨) ص ١٥٧ و ١٥٨ الكتاب المذكور ٠

(١٩) ص ٢٣٤ « الأدب فى ظل بنى بويه » للزهيرى - طبع مصر ١٩٤٩ ٠

حال ، فلم يجزم هــذا الباحث برأى معين لــه · وهــذا رأى الدكتــور محمد غنيمى هــلال وأضاف اليه أن أبا دلف قــد يكون أقرب الى شخصية أبى الفتــح(٢٠) ·

٣ ـ ورأيى الذى أذهب اليه اليوم هــو أن أبا الفتــح انما هــو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البديع ، وهــو أبو دلف الخزرجى وحـــــده ·

وهــذا الرأى لا يسبقنى فيه باحث ، وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب فى القرن الرابع · ودليلنا عليه هــو ما قالــه الثعالبى فى « يتيمة الدهر »(٢١) قال :

انشدنى بديع الزمان لأبى دلف ، ونسبه فى بعض المقــامات الى أبى الفتــح الاســكندرى :

ويحــك هـــذا الزمان زور فـــلا يغـــرنك الغـــرور(٢٢)

لا تلـــتزم حالـــة ولكـــن در بالليـــالى كمـــا تدور

ومن هــذا النص نعرف الحقــائق الآتية :

١ ـ أنشــد البديع الثعالبى شــعرا لأبى دلف ·

٢ ـ وهــذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته الى أبى الفتح ، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتح هــو أبو دلف نفسه باقرار البديع ·

٣ ـ كان البديع راوية لشعر أبى دلف ، ويبدو لى أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم ·

---

(٢٠) النماذج الانسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة للدكتور غنيمى ·

(٢١) ٣ : ٢٥٤ اليتيمـــــة ·

(٢٢) هــذا الشعر فى المقامة القريضية احــدى مقامات البديع ·

واذن يكون امامنا رأى جديد نجزم به ، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف استاذه وصديقه ومعاصره بطلا للمقامات ، وكنى عنه بأبى الفتح ، وكان أبو دلف أروع نموذج ساسانى يصلح بطلا للمقامات ، لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صوره البديع فى المقامات فى شخص ابى الفتح الاسكندرى ، ولأن شهره وتجارب أبى دلف كانت تصلح معينا يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قد كان ٠

بل انى أضيف الى ذلك أن البديع الهمذانى حين سمع قصص ابى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد ، واستمع الى فكاهات هذا الشيخ وسمره فى مجالس الملوك والأمراء والوزراء رأى أن هذه الصورة الفنية تصلح أساسا لفن جديد ابتكره وسماه « المقامة » ، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب الذكى بابتكار فن المقامة فى الأدب العربى ، فى القرن الرابع ، وفى عصر أبى دلف ٠

فمن طرق أبو دلف هذا اذن ؟

يقول صاحب كتاب « النماذج الانسانية »(٢٣) :

على أن ثمة شخصية تاريخية واقعية استمد منها الهمذانى نموذجة الأدبى ، وهو الشاعر أبو دلف وكان معاصرا لبديع الزمان ، وكان البديع يعجب به ويستدعيه الى مجلسه ويحسن اليه ٠٠ وهذا الرأى أخذه على ولم ينسبه صاحب الكتاب لى ، مجافاة للأمانة العلمية ٠

---

(٢٣) القيت بحثا عن شخصية ابى الفتح وانه هو أبو دلف عام ١٩٧٠ فى محاضرة عامة عام ١٩٧١ ، ونشر فى الرياض فى كتاب بعنوان « ابو دلف » عام ١٩٧١ ، وبعد ذلك صدر كتاب « النماذج الانسانية » بسنوات مما يدل على سبقى بالرأى ٠

ومــع ما فى هــذه الجملة من ذهاب الى ما قلناه من أن أبا دلف هــو أبو الفتــح الاسكندرى بطــل مقامات البديع فان فيها على قصرها أخطــاء كثيرة :

١ ـ قــوله « وكان أبو دلف معـــاصرا لبديع الزمان » ، الأولى أن يقــال : وكان البديع معاصرا لأبى دلف لأن أبا دلف كان قــد بلغ الستين فى حين كان البديع ابن عامين ٠

٢ ـ قــوله : وكان ـ أى بديع الزمان ـ يستدعيه ـ أى أبا دلف ـ الى مجلسه ، أليس الأولى العكس ؟ أيستقيم أن يذهب شيخ عظيم كبير السن كأبى دلف الى شــاب صغير ٠

٣ ـ قوله « وكان ـ أى البديع ـ يحسن اليه ـ أى الى أبى دلف ـ أيستقيم ذلك مــع مكانة أبى دلف عند عضــد الدولة والصاحب عبــاد وعظماء الدولة بينما كان البديع شابا يسعى للوصول الى مراكز النفــوذ فى الدولــة ؟

الفصل الثانى

الصاحب وابو دلف

بين الصاحب وأبى دلف(١)

الصاحب ذو القعدة ٣٢٦ هـ : ٩٣٨ م – ٢٤ من صفر ٣٨٥ هـ : ٣١ مارس ٩٩٥ م ·

– ١ –

لم يبلغ أحد من الأدباء وحملة رسالة القلم ما بلغه الصاحب ابن عباد ، من المجد والنفوذ وذيوع الصيت ، وكان – كما يقول ابن خلكان – : « نادرة الدهر ، وأعجوبة العصر ، فى فضائله ومكارمه وكرمه »(٢) ، وكما يقول فيه الثعالبى : هو صدر الشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان »(٣) ·

وقد كرم الصاحب فى حياته ووفاته تكريما لم يبلغه احد من الأدباء وخلد على صفحات التاريخ ، مجدا سامقاً ، وأدبا رفيعا وذكرى مرددة على الأيام ·

– ٢ –

ولد الصاحب اسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد فى ذى القعدة من سنة ٣٢٦ هـ : ٩٣٨ م فى طالقان ، وهو اقليم من أقاليم ايران ، بين قزوين وأبهر ، من أسرة فارسية(٤) رفيعة النفوذ والسلطان، فى خلافة الراضى العباسى (٣٢٢ – ٣٢٩ هـ) ، فرعاه أبواه بحنانهما وعطفهما رعاية فائقة ·

ومضت أيام طفولته الأولى ، والخلافة العباسية تعصف بها العواصف ، فمات الراضى وخلفه المتقى (٣٢٩ – ٣٣٣ هـ) ثم المستكفى

---

(١) ٧٥ من كتابى الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى (خفاجى) ·

(٢) ١ : ٧٥ وفيات الأعيان ·

(٣) ٣ : ١٩٢ يتيمة الدهر للثعالبى تحقيق محى الدين عبد الحميد ·

(٤) ٦ : ١٩٩ كتاب معجم الأدباء لياقوت – نشر رفاعى ·

(٣٢٣ - ٣٣٤ هـ) ، وفى عهده زاد خطر الدولة البويهية فى فارس ، وزحف معز الدولة البويهى على بغداد ، بجيوش كثيفة ، واستولى عليها عام ٣٣٤ هـ : ٩٤٦ م ، وخلع الخليفة ، وولى مكان المطيع لله العباسى (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) ، وسلب الخليفة سلطانه ، وتولى حكم العراق بالنيابة عنه ، ولم يبق للخليفة ذكر الا أن يردد اسمه فى الخطب ، وتجبى باسمه الأموال للبويهيين ، عماد الدولة أخو معز الدولة حكم فارس والأهواز ، كما تولى أخوهما الثالث ركن الدولة الحكم فى الجبل والرى ، وامتد نفوذه على جرجان وطبرستان ..

اما اقليم خراسان وما وراء النهر فكان فى نفوذ السامانيين الذين اتخذوا بخارى عاصمة لهم ، وكانوا يتمتعون باستقلال تام ، وان خطبوا للخليفة العباسى على المنابر ... وكان اقليم الجزيرة والشام فى أيدى الحمدانيين ، ومصر فى نيل الأخشيديين ، والشمال الأفريقى تحت سيطرة الفاطميين والأندلس فى حكم الأمويين وملكهم عبد الرحمن الناصر (٣١٠ - ٣٥٠ هـ) .

وكان قيام الدولة البويهية محاولة من العناصر الفارسية لاسترداد نفوذهم وسلطانهم فى دولة الخلافة من أيدى الأتراك ، وقضاء على النفوذ التركى فى العالم الاسلامى . وبقيام هذه الدولة خضعت الخلافة العباسية لسلطانهم وهيمنتهم على العالم الاسلامى باسم الخلافة والخلفاء(٥) .

ولما مات معز الدولة عام ٣٥٦ هـ(٦) خلفه فى حكم العراق ابنه عز الدولة البويهى (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ) ، ثم عضد الدولة بن ركن الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ) باخوته : صمصام الدولة بن ركن الدولة (٣٧٢ - ٣٧٦ هـ) ، فشرف الدولة (٣٧٦ - ٣٧٩ هـ ، فبهاء الدولة البويهى (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ) .

---

(٥) ٢٤٩ و ٢٥٠ الآداب السلطانية للفخرى .

(٦) فى هذا العام نفسه مات : سيف الدولة الحمدانى ، وكافور الاخشيدى ، وأبو الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الاغانى ، وأبو على القالى صاحب كتاب الأمالى .

وفى عهد عز الدولة خلع الخليفة المطيع لله ، وولى مكانه الطائع العباسى (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) الذى خلعه بهاء الدولة البويهى أيضا ، حيث جره أحد قواده من سرير الخلافة ، والخليفة يقول : ـ انا لله وانا اليه راجعون » • وفى ذلك يقول : الشريف الرضى :

من بعد ما كان رب الملك مبتسما الى أدنوه فى النجوى ويدنينى

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون

ومنظر كان بالسراء يضحكنى يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى

هيهات أغتر بالسلطان ثانية وقد ضل ولاج أبواب السلاطين(٧)

واختار بهاء الدولة القادر بالله العباسى خليفة مكان المطيع (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ) •

وقد نشر النفوذ البويهى سلطان الشيعة والعلويين والاعتزال •• وكان للصاحب ابن عباد مجالس يذظر فيها خصوم المعتزلة ويدعم حججهم(٨) •

وفى العهد البويهى نهض الأدب ، كثرت عواصمه ، ونبغ كبار الأدباء والشعراء ، كابن العميد (٣٦٠ هـ) ، والصاحب (٣٨٥ هـ) ، والخوارزمى (٣٨٣ هـ) ، والبديع الهمذانى (٣٩٨ هـ) ، والصابى (٣٨٤ هـ) ، والقاضى الجرجانى (٣٩٢ هـ) صاحب الوساطة ، والآمدى (٣٦١ هـ) صاحب الموازنة ، وأبى هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) صاحب الصناعتين ، ومثل المتنبى (٣٥٤ هـ) ، والشريف الرضى (٤٠٦ هـ) ، ومهيار (٤٢٨ هـ) ، والمعرى الحلبى (٤٤٩ هـ) ، وسواهم من أعلام الأدب والنقد والبيان والشعر •

---

(٧) ديوان الشريف الرضى ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد •
(٨) ٦ : ٢٠٩ ـ ٢١٢ و ٢٨٠ معجم الأدباء •

وقد تنافس الملوك والأراء والوزراء والولاة فى تشجيع الأدب ورعاية الشعراء . ولابن العميد والصاحب والمهلبى أثر كبير فى ذلك ، وكان ابن سعدان وزير صمصام الدولة يشجع الفلاسفة والمفكرين كأبى حيان وأستاذه أبى سليمان المنطقى ، وكان شابور بن أردشير وزير بهاء الدولة يحتفى بالثقافة والأدب ، وكان ابن العميد يميل الى العلم من حيث كان الصاحب والمهلبى يميلان الى الأدب ، وابن العميد أعقل ويدعى الكرم ، والصاحب أكرم ويدعى العقل كما يذكر أبو حيان(٩) .

وكانت هذه الثورة السياسية وما صحبها من تيارات مذهبية وعقلية وأدبية هى البيئة العامة التى عاش فيها الصاحب وتأثر بها ، وأثر فيها .

- ٣ -

وكان عباد والد الصاحب عالما أديبا كتب لركن الدولة البويهى ، الذى شمل نفوذه الجبل والرى وجرجان وطبرستان ، وكانت حاضرة ملكه هى الرى ، وتولى عباد الوزارة له ، وألف كتابا فى أحكام القرآن ، نصر فيه الاعتزال وجود فيه(١٠) .

وكان هو الأستاذ الأول لابنه اسماعيل ، الذى لقب فيما بعد بالصاحب . وقد عاش هذا الأب العظيم عمرا طويلا ، ومات فى السنة التى مات فيها ابنه ، وهى عام ٣٨٥ هـ . ويذكر ابن خلكان وغيره أنه توفى عام ٣٣٤ هـ أو ٣٣٥ هـ(١١) ، والظاهر أن ذلك تحريف .

وهكذا نشأ الصاحب فى الرى فى بيت سيادة ومجد ، حتى قال

---

(٩) ٦ : ٢٢٧ معجم الأدباء .

(١٠) ٦ : ١٧٢ معجم الأدباء نقلا عن كتاب « المنتظم فى التاريخ » لابن الجوزى .

(١١) ١ : ٧٥ و ٧٦ وفيات الأعيان ، وسلم الوصول ورقة ١٦٦ (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

أبو بكر الخوارزمى فيه : « الصاحب نشأ من الوزارة فى حجرها ، ودب ودرج من وكرها ، وورثها من أبيــه »(١٢) ·

وعاشت أم الصــاحب عمـــرا طــويلا كذلك ، حتى توفيت عام ٣٨٤ هـ(١٣)

- ٤ -

تتلمذ الصاحب على صديق أبيــه الحميــيم ، أبى الفضــل بن العميد ، وزير ركن الدولة ، وشيخ الأدباء والكتاب فى عصره · و « عماد ملك آل بويه وصــدر وزرائهم ، وأوحــد العصر فى الكتابة » ، والكثير من الأدباء جلسوا منه مجلس الطلاب من الأستاذ ، فأعجبوا به ، وجاوروه وقلدوه ، واتسموا بطابعه ، وجــروا فى نهجـــه ، وقبسوا من ناره ، واغترفوا من بحره ، وساوروا فى طريقه ترسما وترسن(١٤) · وطالت صحبة ابن عباد الأستاذه ، فسمى صاحب ابن العميد ، وأطلق عليه هــذا اللقب · وقــد مدح الصاحب أستاذه بقصائد شعرية كثيرة(١٥) ، وكانت مجالس ابن العميـــد يحضرها العلمـــاء والأدباء والمتكلمـــون للمناظرة(١٦) ، وكان الصاحب يعــده أستاذا ووالدا وابن العميد ينزله من نفسه منزلة الابن والتلميذ(١٧) ·

ومن أســاتذة الصــاحب كــذلك ابن فارس ، وكان ابن فارس يبعث للصاحب بكتبه والصاحب يصــله ويقــدره(١٨) ·

وكذلك تتلمــذ على أبى سعيد السيرافى(١٩) ، وشاهد هــذا

---

(١٢) ٣ : ١٩٤ يتيمــة الدهــر ·
(١٣) ٦ : ٢٣٨ معجم الأدباء ·
(١٤) ٣ : ١٥٨ يتيمــة الدهــر ·
(١٥) ٣ : ١٢٩ المرجـــع ·
(١٦) ٣ : ١٦١ - ١٦٣ المرجـــع ·
(١٧) ٣ : ١٩٧ المرجـــع ·
(١٨) ٦ : ٢٢١ معجم الأدباء ·
(١٩) ٣ : ٢٠٤ اليتيمـــة ·

الأستاذ الكبير من نبوغة ما حببه اليه ، وعلى أبى بكر بن مقسم تلميذ ثعلب(٢٠) ، وعلى القاضى أبى بكر بن كامل من كبار رواة المبرد وثعلب والبحترى وأبى العيناء(٢١) ٠ وكان يتردد على مجالس المتكلمين وأهل النظر بالعراق ، من مثل أبى زكريا يحيى بن عدى وغيره(٢٢) ٠

وشهر الصاحب بالعلوم ، وأخذ من كل من منها بالنصيب الموفور ، والحظ الزائد الظاهر ، ووهب من الفصاحة وحسن السياسة والأدب الرفيع ما وهب(٢٣) ٠

وكان كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد أخذ من كل فن بطرف ، وحصل من كل أدب محصولا كثيرا ، وقرأ كتب المعتزلة ووعاها ، فغلب عليه كلامهم ، وكتابته سائرة على منهجهم وطريقهم ، وكان شديد التعصب على أهل الفلسفة وعلومها والناظرين فى كتبها(٢٤) ٠

وثقافته فى العروض والقوافى واسعة ، وألف فيهما ، وكان يتشيع بمذهب أبى حنيفة وفقه الزيدية(٢٥) ٠ ويكتب الرسائل البليغة ويقول الجيدة ، وحصل الحديث وتفوق فيه(٢٦) ، وكانت لديه مكتبة ضخمة(٢٧) ، وطارت شهرته ، وذاع صيته أديبا وكاتبا مجودا ٠

- ٥ -

وقرب ابن العميد تلميذه من الأمير مؤيد الدولة بن ركن الدولة

---

(٢٠) ٦ : ٢٧٦ - ٢٧٩ معجم الأدباء ٠
(٢١) ٦ : ٢٧٩ المرجع ٠
(٢٢) ٢٧٩ : ٢٨٠ المرجع ٠
(٢٣) راجع ٦ : ١٧١ المرجع ٠
(٢٤) ٦ : ١٧٤ و ١٧٥ المرجع ٠
(٢٥) ٦ : ١٧٥ المرجع ٠
(٢٦) ٦ : ٢٥١ المرجع ٠
(٢٧) ٦ : ٢٥٩ معجم الأدباء ٠

البويهى ، وكان ينـوب عن والده فى أعمال الدولة وسياستها • ويصـف نـه ابن العميد ذكاء الصاحب ومواهبه ، فاتخـذه كاتبا لـه(٢٨) ، واجتهد الصاحب فى الاخلاص لـه ، وانس منه الأمير كفاية ومواهب جمـة ، فقربه اليه ، ولقبـه بالصاحب كافى الكفاة ، فلما مات ركن الدولة عام ٣٦٦ هـ ، وتولى ابنـه مؤيد الدولة أمور الملك بالرى وأصبهان وأنحـاء المملكة أبقى أبا الفتـح بن أبى الفضل ابن العميد فى وزارته ، كما كان فى عهد أبيـه • ولمـا أقصى هـذا الوزير اتخـذ مكانه الصاحب وزيرا • ومات مؤيد الدولة ، فسعى الصاحب ، حتى جاء بأخيـه فخـر الدولة البويهى (٣٤١ ـ ٣٨٧ هـ) مكانه وذلك عام ٣٦٧ هـ ، فاقر الصاحب فى الوزارة ، ولكن ابن عباد رأى بنظره وثاقب رأيه وحنكته السياسية ، أن يطلب من فخر الدولة اعفاءه من منصبه ليختار مكانه من يريد لخدمته، فأبى فخر الدولة أن يعفيه من عمله وقال لـه : لك فى هـذه الدولة من ارث الوزارة ما لنـا فيها من ارث الامارة فسبيل كل منـا أن يحتفظ بحقـه(٢٩) • ظـل الصاحب وزيرا لفخر الدولة ثمانية عشر عاما •

- ٦ -

نشر ابن عبـاد بنفـوذه وسـلطانه مذهب المعتزلة فدخـل النـاس فيه ، ومالوا اليه ، رغبـة فى مرضاته(٣٠) • وكانت أيامه توطيـداً لنفوذ العلويين(٣١) ، وكان متعصبا للشيعة ، ناقما على معاوية يذكر ذلك فى شعره(٣٢) ، وذهب الى القـول بالاختيـار وتسفيه الجبرية والجـبريين(٣٣) •

واخلص لدولة البويهيين كل الاخلاص ، حتى لقد حاول السامانيون أن يصير الصاحب اليهم ، فأبى وفاؤه ذلك ، وقال : كيف يحسن لى أن

---

(٢٨) راجـع ٦ : ٢٢١ ـ ٢٢٤ المرجـع السـابق •

(٢٩) ٣ : ١٩٤ اليتيمـة ، ٦ : ١٧٤ معجم الأدباء •

(٣٠) ٦ : ٢٥٥ معجم الأدباء •

(٣١) ٣ : ١٩٢ اليتيمـة •

(٣٢) ٣ : ٢٧٧ المرجـع نفسـه •

(٣٣) راجـع شعرا لـه فى ذلك فى المرجـع نفسه (٣ : ٢٧٦) •

أفارق قوما بهم ارتفع قدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى(٣٤) • وكان فخر الدولة يثق به ، ويجله واذا رأى رأيا ورأى الصاحب غيره ، امتثل لرأى الصاحب وترك رأيه(٣٥) ، وكان فخر الدولة كذلك يحله محل الوالد اكراما واعظاما ، ويخاطبه بالصاحب فى حديثه ورسائله ، وقد التزم رجال الدولة وقوادها مع الصاحب الادب والطاعة حتى كانوا يرتعدون عند رؤية أحد من حجابه وحاشيته(٣٦) • وكان الصاحب يلتزم بالعدل مع الشعب(٣٧) •

ولما توفيت أم الصاحب عام ٣٨٤ هـ باصبهان وورد عليه الخبر ، جلس للعزاء ، وركب اليه سلطانه وولى نعمته ، فخر الدولة ، معزيا ، ونزل وجلس عنده طويلا يعزيه ويسكن من لوعته وفعل ذلك سائر الأمراء وكبار القواد(٣٨) •

وبعد ذلك بقليل زوج سبطه عباد بن على بن الحسين الحسنى الهمذانى عام ٣٨٤ هـ بكريمة أحد أقرباء فخر الدولة(٣٩) فبعث اليه هذا الملك بأموال ضخمة حملها أحد اصحابه الكبار ، وقدم القواد ورجالات الدولة عليه مهنئين واقفين بين يديه مبجلين معظمين(٤٠) ، ومدحه الشعراء بهذه المناسبة •

وفى يوم من الايام استجار خال فخر الدولة بالصاحب ليحميه من غضبة الملك عليه ، فلم يقبل أن يجيره الا بعد أن يستعطف الملك ويترضاه(٤١) • وكان أقارب فخر الدولة من الأمراء وكذلك كبار قواده يحضرون الى قصر الصاحب فيقفون أمامه مطرقين الى أن يؤذن لهم

---

(٣٤) ٦ : ٢٥٩ معجم الأدباء ، وراجع ٣ : ١٩٧ اليتيمة •
(٣٥) ٦ : ١٧٤ معجم الأدباء •
(٣٦) ٦ : ٢٤٧ المرجع •
(٣٧) ٦ : ٢٤٨ المرجع •
(٣٨) ٦ : ٢٣٨ و ٢٣٩ المرجع
(٣٩) ٣ : ٢٤٢ اليتيمة •
(٤٠) ٦ : ٢٤٠ معجم الأدباء •
(٤١) ٦ : ٢٤١ - ٢٤٢ المرجع •

فى الدخـــول فيكون ذلك شرفا للواحـد منهم ، فاذا دخـــل الى مجلس الصاحب قبـل الارض بين يديه ، ولا ينصرف الا بعـد أن يقبـل الأرض كذلك مرارا ، ولم يكن الصاحب يقوم لأحد ، ولا يهم بالقيام ، ولا يطمع منه أحـد فى ذلك(٤٢) . وكان رؤســاء البويهيين وأمراؤهم عندما يسير الصاحب يعـدون بين يديه وكان عضد الدولة فى رسائله اليه يجـله ويعظمـــه(٤٣) .

وقـد كان الصاحب موفقا فى سياسته كل التوفيق ، فتـح خمسين حصنا ، وأضافها الى ملك فخر الدولة(٤٤) . وبلغ غاية لم يبلغها أحـد من أقرانه ، وكأن يقول : ما تقى من أوطـــارى وأغراضى الا أن أملك العراق ، وأتصـدر ببغـداد وأستكتب الصـابى ، ويكتب غنى ، وأغير عليـــه(٤٥)

وفى شـــباب الصاحب كان انصرافه الى مجالس العـــلم وأندية الأدب ، أما فى أخريات حياته فكانت السياسة تصـده عن ذلك ، وتدبير الملك يقتضيه السهر فى حياطته ورعايته ، وقـد نجح فى ذلك أيمـا نجاح ففتح الفتـوح ، وذلل الصروح ووطىء الرقاب ، وأدرك الثأر ، واصطنع الرجال ، كما يقول الصاحب نفسه من رسالة لـه الى سـديته فى الأدب أبى العلاء الأسـدى(٤٧) ، وفى هـذه الرسالة يؤكد أن أعباء ، السياسية قد أثرت على صحته ، ومتاعب الحكم قـد أوهت من قـوته ، وفيها يذكر بيتين من شـعره لهمـا دلالتهما وهما :

وقائلة لم عـرتك الهمـوم وامـرك ممتثل فى الأمـــم

فقلت : دعينى وما قـد عرا فـان الهمـوم بقـدر الهمـــم

---

(٤٢) ٦ : ٢٤٥ و ٢٤٦ المرجـــع .
(٤٣) ٦ : ٢٨٠ المرجـــع .
(٤٤) ٦ : ٢٥١ المرجـــع .
(٤٥) ٦ : ٣٠٦ المرجـــع .
(٤٦) راجع هـذه الرسالة الخطيرة فى ٦ : ٢٩٥ ـ ٢٩٩ المرجـع .
(٤٧) ٦ : ٢٨٤ و ٢٨٥ المرجـــع .

وقد صرح بأنه كتب هذه الرسالة وسنه تزيد على الخمسين ، وأرجح أنه كتبها نحو عام ٣٨٠ هـ ٠

لم ينجب الصاحب غير بنت واحدة زوجها لعلى بن الحسين الهمذانى الحسنى وكان كاتبا وشاعرا بليغاً ، وقد أنجبت ابنته ولدا سماه جده (عبادا) واحتفى بمولده أيما احتفاء وقال فيه :

أحمد الله لبشرى أقبلت عند العشى

أن حبانى الله سبطا هو سبط للنبى

مرحبا ثمت أهلا بغلام هاشمى

نبوى علوى حسنى صاحبى(٤٧)

وقد هنأه الشعراء بمولده بقصائد كثيرة(٤٨) ، وبعد أن كبر هذا الطفل وبلغ مبلغ الشباب زوجه جده من كريمة أحد اقرباء فخر الدولة(٤٩) ، وهى ابنة أبى الفضل الداعى ، وهنأ الشعراء الصاحب كذلك بهذه المناسبة الجميلة ٠

وحين بنى الصاحب قصرا له بأصبهان ، أقبل الشعراء عليه يهنئونه بقصائد من جيد الشعر وأعذبه(٥٠) ٠

وذلك كله يدل على مجده ونفوذه الكبير فى الدولة ٠

ـ ٧ ـ

وقد رعى الصاحب النهضة العلمية والأدبية فى بلاده رعاية

---

(٤٨) راجع ٦ : ٢٨٦ المرجع ، ٢ : ٢٤٠ ـ ٢٤٢ اليتيمة ٠

(٤٩) ٣ : ٢٤٢ اليتيمة ٠

(٥٠) ٣ : ٢٠٧ ـ ٢١٨ المرجع ٠

فائقة ، وأغدق على العلماء والأدباء والشعراء ، فكان يرسل الأموال الجمة اليهم والى الكثير من المحتاجين من أهل الشرف وللفقهاء والزهاد والكتاب ببغداد والحرمين ، كل سنة ، مع ركب الحج ، على مقاديرهم ومنازلهم ، ويقول الثعالبى فيه : كانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، جلب اليه من الآفاق ، وأقاصى البلاد ، كل خطاب جزل ، وقول فصل ، واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى ، فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء ·
وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والرى وجرجان مثل : أبى الحسين السيمى ، وأبى بكر الخوارزمى ، وأبى طالب المأمونى ، وأبى الحسن البديهى ، وأبى سعيد الرستمى وأبى القاسم الزعفرانى ، وأبى العباس الضبى ، والقاضى الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلاء وأبى محمد الخازن ، وأبى هاشم العلوى ، وأبى الحسن الجوهرى ، وبنى المنجم ، وابن بابك ، وابن القاشانى والبديع الهمذانى ، واسماعيل الشاشى ، وأبى العلاء الأسدى ، وأبى الحسن الغويرى وأبى دلف الخزرجى ، وأبى حفص الشهرزورى وأبى معمر الاسماعيلى ، وأبى الفياض الطبرى ، وغيرهم ومدحه مكاتبة : الرضى والصابى وابن حجاج وابن سكرة وابن نباتة ·

مدح الصاحب خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين ، وكان من قضائه قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد(٥١) · وقال الصاحب : مدحت بمائة ألف قصيدة شعر عربية وفارسية وقد انفقت أموالى على الشعراء والأباء والزوار والقصاد ، وما سررت بشعر ، ولا سرنى شاعر ، كما سرنى الرستمى بقوله :

---

(٥١) ٦ : ٢٥٧ معجم الأدباء ·

ورث الوزارة كابرا عن كابر مرفـوعة الاسـناد بالاسـناد

يروى عن العباس عباد وزا رته واسماعيل عن غباد(٥٢)

ولا شك أن الصاحب اثر بذلك فى النهضة الأدبية فى بلاده تأثيرا كبيرا وخطيراً ٠

- ٨ -

كان الصاحب ـ كما قيل فيه ـ يجمع بين الرأفة والبطش ، والناس يهابونه ويجلونه لاقتداره وطبشه ٠ وكان وقوراً محبوباً من العامة والخاصة ، والى جانب ذلك كان جوادا سخيا ، لا تخلو داره فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس يجلسون على مائدته فى الافطار ، وكانت صلاته وخيراته فى هذا الشهر تبلغ ما ينفق منها فى جميع شهور السنة(٥٣) ، ولا يقل ما يبذله كل عام فى صلات الأشراف وأهل العلم ووجوه الخير عن مائة الف دينار(٥٤) ٠٠ وكانت له من أسباب الهيبة ما يعجز الكاتب عن وصفه(٥٥) ٠ وفيه وفى ابن العميد يقول خصمهما اللدود أبو حيان التوحيدى : كانا كبيرى زمانهما ، واليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا(٥٦) ٠

ومع ذلك فقد هجاهما التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزيرين » هجاء مرا ، وألصق بهما التهم جزافا ، وكال لهما الهفوات بغير حساب٠ وهجا بعض الشعراء الصاحب هجاء مقذعا(٥٧) ، كأبى العلاء الأسدى،

---

(٥٢) ٦ : ٢٦٣ المرجـع ٠

(٥٣) ٣ : ١٩٧ اليتيمـة ٠

(٥٤) ٦ : ٢٤٩ معجم الأدباء ٠

(٥٥) ٦ : ٢٤٨ المرجـع ٠

(٥٦) ٦ : ٢٣٢ المرجـع ٠

(٥٧) ٣ : ٢٨١ اليتيمـة ٠

والنويرى ، والخوارزمى والسلامى(٥٨) ·

ـ ٩ ـ

وترك الصاحب مؤلفات كثيرة منها :

١ ـ كتاب المحيط باللغة فى عشرة مجلدات ، ومنه نسخة خطية عثر عليها فى لندن فى المتحف البريطانى ، ونسخة فى مكتبة المجمع العلمى العراقى ببغداد تقع فى مجلدين كبيرين ، وكاتبها هو الشيخ محمد السماوى عن نسخة كتبت للسيد على خان المدنى صاحب السلافة ·

٢ ـ كتاب الكافى فى الرسائل ·

٣ ـ ديوان رسائل الصاحب ـ عشرة مجلدات ، وقد طبعت مختارات منها ·

٤ ـ كتاب الزيدية ·

٥ ـ كتاب الأعياد وفضائل النوروز ·

٦ ـ كتاب فى تفضيل على بن أبى طالب ·

٧ ـ كتاب الوزراء ·

٨ ـ عنوان المعارف فى التاريخ ·

٩ ـ الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره وهو مطبوع ، وقد نقد الصاحب فيه شعر المتنبى ، وكان يتحامل على المتنبى لأنه لم يقصد اليه فى الرى ولم يمدحه مع أنه مدح ابن العميد ، وكان الصاحب قبل وفاة المتنبى عام ٣٥٤ هـ لا يزال شابا ولم يكن له آنذاك كبير الخطر ، ولا شهرة فى السياسة ، ولعل ذلك هو ما جعل المتنبى لا يقصده ولا يقول فيه شيئا من الشعر ·

---

(٥٨) بيتيمة الدهر للثعالبى ـ ج ٣ ·

١٠ - كتــاب مختصر أسماء الله تعالى وصفاته ٠

١١ - كتــاب العروض الــكافى ٠

١٢ - كتــاب نقض العــروض ٠

١٣ - كتــاب جــوهرة الجمهــرة ٠

١٤ - كتــاب نهــج السبيل فى الأصــول ٠

١٥ - أخبــار أبى العينــاء ٠

١٦ - تاريخ الملك واختلاف الدول ٠

١٧ - وهــذا كله بالاضافة الى ديوان شعره ، وهــو مطبوع ، وقد صــدرت طبعة جــديدة منه من مكتبة النهضة ببغــداد بتحقيق محمـــد حسن آل ياســـين ٠

١٨ - وينسب ياقوت اليه كتابا عنوانه « كتاب الزيدين » ولعله هو كتــابه الزيدية فحرف ٠

- ١٠ -

ظــل الصاحب وزيرا لفخر الدولة أكثر من ثمانية عشر عاما ومات وهــو يخطو الى الستين ، فى الرابع والعشرين من صفر عام ٣٨٥ هـ(٥٩) ٣١ من مارس عام ٩٩٥ م ومات بعــده فخر الدولة بعامين ٠

وقــد اهتزت مدينة الرى وهى تشيع جثمان الوزير الأديب الى مرقــده الأخير ، وسار امام النعش فخر الدولة وكبار القــواد والأمراء ، وقعــد بنفسه للعزاء أياما(٦٠) ٠ وبكاه الشــعراء بكاء مؤثرا(٦١) ، فقال فيه : أبو القاسم الأصبهانى :

---

(٥٩) ٣ : ٢٨٣ اليتيمة ٠

(٦٠) ٦ : ١٦٩ و ٢٧٥ معجم الأدباء ٠

(٦١) ٣ : ٢٨٤ - ٢٩٠ اليتيمة ، ٦ : ٢٦٣ و ٢٩٤ و ٢٩٥ معجم الأدباء ٠

ما مت وحدك لكن مات من ولدت　　حواء طرا ، بل الدنيا ، بل الدين

تبكى عليك العطايا والصلات كما　　تبكى عليك الرعايا والسلاطين

وقال فيه الشريف الرضى من قصيدة طويلة :

هلا أقالتك الليالى عثرة　　يا من اذا عثر الزمان اقالا

ان نكس الاسلام بعدك راسه　　فلقد رزى بك موئلا ومآلا

كان الغريبة فى الزمان فأصبحوا　　من بعد غارب نجمه أمثالا

وهكذا طويت هذه الصفحة البيضاء وختم سجل تلك الحياة الحافلة بالمجد والعبقرية ٠

- ١١ -

١ - كانت كل الاسباب تدفع بالصاحب الى النبوغ فى الأدب : عصره،ونشأته العلمية والأدبية،وأساتذته من أمثال : ابن العميد والسيرافى وابن فارس ، وبيته ومناصبه التى تقلدها ، وحلقات العلم والأدب ومناظراتهما التى خاضها ، والكتب التى قرأها ، ورغبته فى أن يحتل منزلة ابن العميد ، وأن تحتل الرى منزلة كبغداد فى قيادة النهضة الأدبية وترجيهها ٠

كل ذلك كان عاملا فى تفجر مواهبه ، وانطلاق ملكاته ، وانبثاق ينابيع شاعريته ، فكان أديبا كاتبا بليغا ، وشاعرا رصيفا ، وكان أستاذه وقدوته فى الكتابة الفنية هو ابن العميد ولا ريب ٠

٢ - وفى عصر الصاحب ازدهرت الكتابة ، وبلغت قمة التجويد والتجديد ، ونبغ فى هذا العصر أعلام الأدب والنقد والنثر الفنى ، من أمثال : أبن العميد والجرجانى والعسكرى والآمدى والصابى والخوارزمى والبديع والمهلبى والضبى وغيرهم ٠

وكان الصاحب يقول : كتاب الدنيا وبلغاء العصر اربعة : ابن العميد والصابى وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعنى نفسه(٦٢) . وكان يقال ان الصاحب يكتب ما يريد والصابى يكتب ما يراد . وكان يسير على طريقة ابن العميد فى الكتابة ، مع حرص شديد على السجع ، حتى روى أبو حيان فيه : انه لو رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من اجلها الى غرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم امور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها(٦٣) ، ويقول أبو حيان : كان ابن عباد يأتى بالسجع فى أثر كلامه ، مع روية طويلة(٦٤) .

وبلاغاته وفقره ورسائله مشهورة ، معروفة المنزلة فى الفصاحة والبيان .

يقول فى التهنئة ببنت :

أهلا وسهلا بعقيلة النساء ، وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة بأخوة يتناسقون ، نجباء يتلاحقون ، فادرع يا سيدى اغتباطا ، واستأنف نشاطا ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ، ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ، والسماء مؤنثة ، وقد زينت بالكواكب ، وحليت بالنجم الثاقب ، والنفس مؤنثة ، وبها قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة ، وبها وعد المتقون ، ولها بعث المرسلون . فهنيئا لك ما أوليت ، وأوزعك الله شكر ما أعطيت ، وأطال بقاءك ما عرف الفضل والرمد ، وما فى الأمد ، وما عمر لبد .

واهدى الى الصاحب مصحف فقال :

---

(٦٢) ٢ : ٢٤٦ اليتيمة .
(٦٣) ٦ : ٢٠٧ معجم الأدباء .

كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله ، ومعجزة رسول الله - صلى الله عليه وسلم ودليله - ، طبع دون معارضة على الشفاه ، وختم على الخواطر والأفواه ، فقصر عنه الثقلان ، وبقى ما بقى الكون ، لائح سراجه ، واضح منهاجه ، منير دليله ، عميق تأويله . يقصم كل شيطان مريد ، ويذل كل جبار عنيد .

وتتلخص طريقة الصاحب الفنية فى الكتابة فيما يلى :

أولا : ايثار السجع والتزامه ، حتى لبقول أبو حيان التوحيدى متهكما به : كان كلفه بالسجع فى الكلام عند الهزل والجد يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد . قلت لابن المسيبى : اين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك حدا لو أنه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها الى عزم نقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يخليها ، بل يأتى بها ، ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع من وصفت من عواقبها . ثم قال - نقلا عن ابن العميد - : ان الصاحب خرج من الرى متوجها الى أصفهان ، ومنزله « ورامين » . وهى قرية كالمدينة ، فجاوزها الى قرية غامرة ، وماء ملح ، لا لشىء الا ليكتب الينا : كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار .

ثانيا : ايثار الفقر القصيرة فى التعبير ، لشدة وقعها فى النفس ، وقوة تأثيرها فى السمع .

ثالثا : الاهتمام بالمعنى اهتماما واضحا ، واعطاء الموضوع ما يستحقه من عناصر ، فهو يقسم عناصره ، ويرتبها ، ويعطى كل قسم منها من المعانى ما يوضحه ويبينه ، وهو يأخذ هذه المعانى بالتحليل والتفصيل ، ويتعهدها بالتنويع والتفريع ، ويقرن بعيدها بما يقربه الى العقل من دليل أو نظير ، ويولد بعضها من بعض ، متكئا على ثقافته العقلية ، فأصبحت الرسالة عنده ذات وحدة موضوعية ، وبنية فنية متميزة ، وصارت معانيه عنده دقيقة الترتيب والتقسيم .

رابعا : كثرة الحجاج العقلى فى أسلوبه • أثرا لثقافته الكلامية التى استفادها من اعتزاليته •

خامسا : الحرص على تأكيد المعنى وتقريره ، بمعاودته ، وبايثار الترادف والالحاح عليه •

ونثر الصاحب على الجملة - لو تأملناه - نثر لطيف ، رشيق بليغ ، عذب سهل ، يتميز بقوة الحجة والاعتماد على المنطق ، مما كان أثرا لاعتزاليته وثقافته وعقله الواسع • كما يتميز بقصر الفقرات وشدة توقيعها والحرص على السجع فيها ، وقد يعنى فيه بالجناس أو المقابلة •

ولا شك أن الصاحب كان من أعلام النهضة الفنية فى الأدب والكتابة وأدب الرسائل فى عصره ، وهو القرن الرابع الهجرى ، الحافل بأسباب النهضة والازدهار والتجديد والحضارة •

٣ - وفى عصر الصاحب كان الشعر يجتاز مرحلة عالية من البلاغة والتجديد والابتكار ، وكان المتنبى والرضى ومهيار والمعرى ومئات الشعراء يدوى ذكرهم فى كل أفق ، ويسير شعرهم فى كل مكان ، ويملأون الجو الأدبى حياة وقوة وخصبا •

وللصاحب شعر كثير ، جمع فى ديوان منشور ، وروى بعضا منه الثعالبى وغيره من الكتاب •

وقد نظمه الصاحب فى اغراض كثيرة :

(أ) نظمه فى الغزل ، كقوله :

قال لى : ان رقيبى سيىء الخلق فداره

قلت : وجهك الجنـ ـه حفت بالمكاره

(ب) وفى الخمريات ، ومنه فى وصف الكأس :

رق الزجاج ورافت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر

(جـ) ونظمه فى الأوصاف والتشبيهات ، كقوله :

شبهته والسيف فى كفه بالبدر اذ يلعب بالبرق

وقوله :
أهديت عطرا مثل طيب ثنائه فكأنما اهدى له أخلاقه

(د) وفى الاخوانيات كقوله :

يا أبا الفضل لم تأخرت عنا فأسانا بحسن عهدك ظنا

كم تمنت نفسى صديقا صدوقا فاذا انت ذلك المتمنى

فبغصن الشباب لما تثنى وبعهد الصبا وان فات منا

كن جوابى اذا قرأت كتابى لا تقل للرسول كان وكنا

(هـ) وفى المدح كقوله فى فخر الدولة لما بنى قصره بجرجان :

يا بانيا للقصر بل للعلا همك والفرقد سيان

لم تبن هذا القصر بل صغته تاجا على مفرق جرجان

وقصرك المبنى من قبله ملكك والله هو البانى

فاقبل نثار العبد بل نظمه فانه والدر مثلان

واسمع مقالا لم يقل مثله مذ كانت الدنيا لانسان

لو كان للخلق الهان لكان فخر الدولة الثانى

وفى البيت ما فيه من المبالغة القريبة من الكفر ومن الملق والنفاق ٠

(و) ونظمه فى الهجاء والمجون كقوله :

ان قاضينا لأعمى أم على عمد تعامى
سرق العيد كأن العيد من مال اليتامى

وقوله :

تزلزلت الأرض زلزالها فقالوا بإجمعهم : ما لها ؟
مشى ذا الثقيل على ظهرها فأخرجت الأرض أثقالها

وهو شعر يدل على ذوق مترف ، وشاعرية خصبة ، غنية بالألوان والصور والأخيلة والمعانى ، ولكنه لا يرتفع به الى منزلة شعراء عصره الخالدين ، من أمثال للمتنبى والرضى ومهيار وغيرهم ٠ وهو كذلك لا يصل الى منزلة نثره البليغ الرصين الرائع ٠

وعلى الجملة فقد كان (ابن عباد)(٦٥) شاعرا مجودا ، وبليغا

---

(٦٥) راجع فى الصاحب : المنتظم لابن الجوزى ـ يتيمة الدهر الجزء الثالث ـ وفيات الأعيان الجزء الأول ـ سلم الوصول (مخطوط) ـ ٠

معجم الأدباء لياقوت ـ الأعلام للزركلى ـ جميع كتب التاريخ التى أرخت للدولة البويهية والقرن الرابع الهجرى ـ كتب تاريخ الأدب العربى ، من مثل تاريخ الأدب العربى للزيات ـ تاريخ آدب اللغة العربية لزيدان ـ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد زيدان ، تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى ، الأدب فى ظل بنى بويه للزحيرى ، ادبيات اللغة العربية لمحمد عاطف ، تاريخ الأدب لحفنى ناصف ، الحياة الأدبية فى العصر العباسى ، والحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى ، وهما لكاتب هذا البحث ـ العصر العباسى للاسكندرى ، تاريخ الأدب العربى الجزء
=

محلقا ، وأديبا مترسلا ، فى الصف الأول من أدباء عصره ، وقد خلدته روائع شعره ونثره على مر الزمان ٠

=

الثانى لمحمود مصطفى ٠ دوائر المعارف من مثل : دائرة المعارف الاسلامية ، دائرة معارف البستانى ، دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى ، الاعلام للزركلى ـ زهر الآداب للحصرى ، الصناعتين للعسكرى ، صبح الأعشى القلقشندى ، النثر الفنى فى الرابع لزكى مبارك ، أمراء البيان لمحمد كرد على ، الفن ومذاهبه فى النثر العربى لشوقى ضيف ، المثل السائر لابن الأثير ، نهاية الأرب للنويرى ، الآداب السلطانية للفخرى ـ الوزراء والكتاب للجهشيارى ، نشوار المحاضرة للتنوخى ٠

وراجع ديوان الصاحب ، ورسالته : الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره ، وكذلك مجموعة رسائله ٠

وللدكتور بدوى طبانة كتاب عن الصاحب نشر فى سلسلة أعلام العرب ، وللدكتور حامد داود حفنى كتاب عنه كذلك

الفصل الثالث

ابــو دلــف فى زحــام الحيــاة

أبو دلف الخزرجى

(٣٠٠ ـ ٣٩٠ هـ = ٩١٣ ـ ١٠٠١ م)

ـ ١ ـ

رحالة من أعظم الرحالة الجغرافيين المسلمين على امتداد التاريخ وبخاصة فى القرن الرابع ·

وعالم وطبيب وكيمائى وجيولوجى من الطراز الأول فى عصره ·

ومنادم فى الذروة ، جلس فى مجالس الملوك ينادمهم ، وينادم الوزراء والأمراء ، وينال عندهم الحظوة والمكانة الرفيعة ·

وشاعر رفيع المنزلو فى عصره فى الشعر ، وعلم من أغلام الشعر الساسانى الذى كان له طرافته وروعته فى عصره ·

ونموذج فنى رفيع للساسانية التى تتميز بالظرف وعلو الذوق وجمال الفكاهة وحضور البديهة وسرعة النكتة ·· وعلو ذوقه وجمال فكاهته مما حببه الى الملوك وقربه الى الوزراء

وهو شخصية فذة اهتزت دوائر المشرق والمغرب بدراسة أفكارها ونتائج رحلاتها القديمة فى شتى أنحاء آسيا ·

ولقد كان بديع الزمان الهمذانى وثيق الصلة بأبى دلف ، وواقفا على أخباره ، وراوية لشعره ، وفى اليتيمة ما يدل على ذلك(٢)· وكانت شخصية أبى دلف ملء سمع البديع وبصره ، ورحلاته رتطوافه فى الأرض موضع عجبه واستظرافه ، كما كانت شيخوخة أبى دلف وتجاربه وحكمته وخبرته بالحياة وتنقله بين الغنى والفقر ، وحرفته الساسانية وهو علم فيها ·· كان ذلك كله موضع تأمل البديع وتعجبه ،

---

(١) ١٠٧ من كتابى « الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى » ·

(٢) ٣ : ٢٢٣ اليتيمة ·

لذلك فان البديع حين كتب مقاماته اتخذ من ابى دلف وشخصيته بطلا للمقامات التى أبدعها ، ورمز اليه بأسم ابى الفتح الاسكندرى ٠

ونقول تأكيدا لذلك : ان جميع ما صور به البديع بطل مقاماته أبا الفتح الاسكندرى ينطبق على أبى دلف تمام الانطباق ٠

فهو خطيب وبليغ وشاعر ، وهو جوالة فى الآفاق ، وهو يحترف الساسانية تظرفا ودعابة وحشو فكاهة ، والعجب من قعود همته مع حسن آلته ، وهو كهل قد غبر فى وجهه الفقر ، وهو كما يقول البديع فى المقامة الصيمرية على لسان أبى الفتح :

« خرجت أسيح كأنى المسيح فجلت خراسان الى كرمانى وسجستان ، وجيلان ، الى طبرستان والى عمان ، الى السند والهند ، والنوبة والنبط ، واليمن ، والحجاز والطائف فجمعت من النوادر والأخبار والأسحار والفوائد ٠٠ ما قصر عنه فتيا الشعبى » ٠

واسم أبى دلف مسعر بن المهلهل ٠

ونسبته الى الخزرج احدى القبيلتين الكبيرتين فى المدينة اللتين أطلق عليهما بعد الهجرة اسم « الأنصار » ، وهما الخزرج والأوس ٠ وللخزرج فى الاسلام وبالاسلام تاريخ كبير خالد ، ومن الخزرج بنو النجار أخوال رسول الله ، لأن أم جده عبد المطلب « نجارية » ٠

أما الينبعى فهو نسبة الى مدينه ينبع المشهورة فى الحجاز ، ويوصف أبو دلف أيضا بالينبوعى ، وينبع وينبوع علم واحد لهذه البلدة المعروفة من بلاد الحجاز ٠

ونحن لا نعرف عن المهلهل والد مسعر ولا عن قومه شيئا ، فكل المعلومات المتعلقة بحياة أبى دلف شحيحة ونادرة ٠٠ وقد عنى المستشرقون باعمال أبى دلف الجغرافية وحدها ، ومن بينهم رون صوبر،

ومينورسكى ، وكراتشوفسكى • ولم يستطيعوا مع ما بذلوه من جهد علمى ، كشف ما غمض دن حياة أبى دلف نفسها •

أما أم أبى دلف فنجد فى رسالة لابن العميد(٣) ، كتبها وعيدا وتهديدا لأبى دلف ، ما يدل على أن صاحبنا يتتمى الى ابتة محمد بن زكريا الذى كان يعاصر لبن للعميد •

وقد أعيانى البحث فى المصادر القديمة عن شخصية محمد ابن زكريا فلم أهتد الى اثر له ، وقد أستطيع فى المستقبل الاهتداء الى ترجمة له تكشف عن شخصيته ، فأضيف الى صورة أبى دلف مزيدا من الوضوح والرؤية •

وأغلب الظن أن أبا دلف ولد فى ينبع ، وهو ما ذكره كراتشوفسكى فى كتابه ، « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »(٤) أيضا ، ويؤيد ذلك قول أبى دلف فى رسالته التى وصف فيها رحلته الى الصين ، وهى الرسالة الأولى : « لما نبا بى وطنى ، ووصل بى السير الى خراسان ، ضاربا فى الأرض »(٥) • ويذكر خالدوف وبولناكوف فى تحقيقهما للرسالة الثانية لأبى دلف ذلك أيضا ، أى أن ميلاده كان فى ينبع ، ولكنهما يخطئان فيقولان : ان مكان مولده هو فى مدينة ينبع الميناء على ساحل البحر(٦) ويقولان اثر ذلك : ومن غير المعروف زمن ومكان مولد ووفاة أبى دلف •

وتذكر بعض المراجع ، ومن بينها الأعلام للزركلى ، أن أبا دلف

---

(٣) سأذكر فقرات من هذه الرسالة عند الحديث عن صلة أبى دلف بابن العميد - وراجعها فى صفحة ٢٨٩ من كتاب مثالب الوزيرين لأبى حيان التوحيدى •

(٤) ص ١٨٨ •

(٥) راجع ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت •

(٦) ص ٨ الرسالة الثانية لأبى دلف - ترجمة محمد منير مرسى - نشر مكتبة عالم الكتب بالقاهرة •

مات نحو عام ٣٩٠ هـ - ١٠٠١ م ، وانه عاش نحو التسعين عاما ، فيكون ميلاده اذن فى خلافة المقتدر بالله العباسى عام ٣٠٠ - ٩١٣ م ٠

ويذكر الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » أنه عمر تسعين عاما ، فيقول عنه : خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب » ٠ ولكنه لا يحدد تاريخا لميلاده ولا لوفاته ٠

وهو من الجزيرة العربية ، من ينبع عاش القرن الرابع الهجرى كله ، يجوب البلاد ، ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء ، تراه مطوفا فى كل مكان من بخارى الى الصين والهند ، ومن فارس الى ارمينية وأذربيجان وطبرستان ، وبلاد الأكراد ، ويصف كل ما شاهده ، ويدون كل ما يلاحظه ، فى دقة تامة ، وعناية بالتفاصيل ، مما أذهل المستشرقين ، فكتبوا عنه أنه كان جغرافيا من الطراز الأول ، ومن أشهر الرحالة فى القرن الرابع ٠

وأبو دلف من هذا الجانب مصدر أصيل لكل الجغرافيين المسلمين ، الذين أتوا بعده ، ومن بينهم : ياقوت الحموى فى كتابه « معجم البلدان » ، والقزوينى فى كتابيه : « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد » ٠

وأبو دلف شاعر عربى كبير ، مجهول شأنه ، مغمور تاريخه ، لم يذكره أحد من المؤلفين القدماء ، ونسيه المحدثون نسيانا تاما ٠

والمصدر العربى القديم الذى ترجم لأبى دلف شاعرا ترجمة ادبية ، ليس فيها شىء من التفصيل عن حياته ، هو كتاب « يتيمة الدهر » لأبى منصور الثعالبى شيخ الأدباء فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى (المتوفى عام ٤٢٩ هـ) ، فقد ذكره الثعالبى فى الباب السادس الذى خصه بالشعراء الطارئين من الآفاق على الوزير الصاحب بن عباد ، وقال عنه :

« أبو دلف الخزرجى الينبوعى ، مسعر بن مهلهل ، شاعر كثير الملح

والظرف ، مشحوذ المدية فى الجدية ، خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب فى خدمة العلوم والآداب » ، ويستمر الثعالبى فى الحديث عن أبى دلف ، فيقول : « كان ينتاب - يقصد - حضرة الصاحب بأصبهان ، ويكثر المقام عنده ويتزود كتبه - أى رسائله التى تتضمن التوصية - فى أسفاره » .

ويشير الثعالبى الى معركة الهجاء التى دارت بين ابى دلف والشاعر السلامى (٣٣٦ - ٣٩٤ هـ) .

ويذكر شعرا لأبى دلف ، وقصيدته الساسانية الطويلة(٧) .

وفى موضع آخر من اليتيمة يقول الثعالبى عنه : « وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبعى ، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحسد السلامى على منزلته(٨) .

ويشير الثعالبى الى أبى دلف فى بعض كتبه الأخرى اشارات عابرة ، مثل كتابه « لطائف المعارف » .

ونجد نقولا جغرافية كثيرة عنه فى : « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد »(٩) ، وهما للقزوينى ، وفى « معجم البلدان » لياقوت الذى يشير الى أبى دلف فى ٣٤ اقتباسا .. ودراسات كرتشوفسكى تذكر ٢٤ اقتباسا لا يذكر فيها ياقوت اسم أبى دلف .

---

(٧) راجع ٣ : ٢٥٢ وما بعدها يتيمة الدهر . للثعالبى - بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٨) ٢ : ٤٠٠ يتيمة الدهر .

(٩) فى كتاب « آثار البلاد » يوجد ٢٤ اقتباسا من « الرسالة الثانية لأبى دلف » وان كان لا يشير الى أبى دلف الا فى سبع منها ، وفي عجائب المخلوقات توجد كذلك اشارات كثيرة له ، وأربع اقتباسات دون اشارة الى اسمه .

وفى دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « مسعر » ترجمة لـه تبين الكثير من دراسـات المستشرقين عنـه : رحـالة كبيرا ، وجغرافيـا مشهورا(١٠)

وتجىء اشارات صغيرة عنه فى كتاب « بلاد ينبـع » للشـيخ حمـد الجـاسر(١١) .

وفى كتاب الأعـلام للزركلى ترجمة لأبى دلف فى عـدد سطور ممـا جاء فيـه عنه : شـاعر رحـالة ، وكان يكنى بالرحـالة الحجازى قام برحلة ممتعة الى الشرق الأقصى ، وكتب ما شاهده فى تلك الديار فى كتاب ضخم ، نقله المستشرقون عنه الى مختلف اللغات الأوربيـة ، تجاوز التسعين من عمره توفى نحـو عام ٣٩٠ هـ(١٢) .

ويلاحظ الشيخ حمـد الجاسر على هـذه الترجمة امرين :

الأول أن الزركلى نسبه الى ينبع البحر ، وهـو من ينبع النخل .

والثانى قوله فى « كتـاب ضخم » : ويقول العلامة الجاسر : انه ليس مجلدا ضخما بل رسالة ، وقـد حققها المستشرق مينورسكى وطبعت فى مصر سنة ١٩٥٥ فى ٣١ صفحة النص العربى والترجمة الانجليزية والدراسة فى ١٣٦ صفحة .

وكلام العلامة الجاسر صحيح فى أنه ليس كتابا ضخما بل رسالة، وأما قوله : « ان الرسالة حققها المستشرق مينورسكى اخ » فذلك ليس عن رسالة ابى دلف فى وصف رحلته الى الشرق الأقصى ، وهى التى

---

(١٠) راجـع الطبعة الانجليزية الجـديدة من دائرة المعارف الاسلامية. وقـد ترجم النص الانجليزى لهـذا البحث الأستاذ وديع فلسطين ـ الطبعة العربية لم تصـل الى هـذه المـادة .

(١١) ١١٧ و ١٤٥ بـلاد ينبـع .

(١٢) ٨ : ١٠٩ الأعـلام للزركلى .

تسمى بالرسالة الأولى ، بل عن رسالة أبى دلف فى وصف، رحلته فى آسيا الوسطى وهى التى تسمى الرسالة الثانية ·

والرسالة الأولى لأبى دلف عنى بتحقيقها المستشرق الألمانى رور صوير ·

أما الرسالة الثانية فعنى بتحقيقها المستشرقون الروس ، فدرسها المستشرق كراتشوفسكى ، ومينورسكى ، وحققها مينورسكى ، ثم خالدوف ويولناكوف معا فى نصها العربى ، وهما مدرسان بجامعة ليننجراد ·

ـ ٢ ـ

وهكذا عاش أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى · وشاهد كل أحداث هذا القرن وغرائبه ، بما ساد فيه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب ، وبما ساده من تطورات فكرية وسياسية كبيرة، كان فى مقدمتها : انتهاء نفوذ الخلافة العباسية ، باستيلاء البويهيين على بغداد عام ٣٣٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة فى أنحاء العالم الاسلامى الذى كانت من قبل تجمعه رابطة سياسية واحدة ·

ولا نعلم شيئا عن حياة أبى دلف الأولى ونشأته · وبلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة ، وشب عربيا كريما عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة ، فى وسامة ولطف · وكانت ينبع النخل آنذاك مركزا من مراكز العلم والأدب والشعر ، وصار أبو دلف شاعرا وعرف كذلك طبيبا ومنجما ، وليست « ساسانيته » بمنقصة لعزة نفسه ، فقد كانت ساسانية ظرف وفكاهة وأدب وطواف بالآفاق ·

وفجأة ينبو بأبى دلف وطنه ، وتسير به الحياة الى الأمير السامانى نصر بن أحمد (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ : ٩١٤ ـ ٩٤٣ م) ، فيحتل عنده منزلة عالية فى دولته ، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير ، ومهما كان ، فقد صار أبو دلف شاعر الأمير ونديمه ، وصار كذلك سفيره فى كثير من المهام الرسمية ·

وكان الجيهانى أبو عبد الله بن احمد بن نصر وزير للسامانيين (توفى عام ٣٣٠ هـ/٩٤١ م) ، وكان يشجع الأدباء ، ويختفى بالعلماء ولعله هو الذى احتضن أبا دلف ، أو اتخذه كاتبا له ، وعن طريقه نوطدت صلته بالملك السامانى نصر بن أحمد الذى كانت بخارى عاصمة ملكة الواسع الذى امتد نحو الثلاثين عاما (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ) ٠

وفى عهد الملك نصر بن احمد وفد الى بخارى وفد هندى برياسة الأمير الهندى كلاتلى فى سفارة هندية الى بلاط الملك السامانى، وأنجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم الى بلادهم بعث معه الملك شاعره أبا دلف ليكون مرافقا لهم ٠

وزار أبو دلف فى هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل مليبار ، ووصف ذلك كله فى كتاب ألفه بعنوان « عجائب البلدان » ، والظاهر أنه مجموع رسالتيه فى وصف رحلاته(١٣) ٠

وفى آخر حكم نصر بن أحمد السامانى وفد على بخارى كذلك وفد صينى ، ويقص أبو دلف قصة هذا الوفد ، فيقول(١٤) :

« ان رسل ملك الصين جاءوا ليخطبوا ابنة الملك السامانى لملكهم ، فأبى نصر بن أحمد ذلك ، واستنكره لحظر الشريعة له ، فلما ابى ذلك عرضوا عليه أن يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين ، فأجاب الى ذلك ، فاغتنمت قصد الصين معهم » ٠

وكان ذلك نحو عام ٣٣١ هـ : ٩٤٢ م وقد عبر ابو دلف هو والوفد الصينى تركستان الغربية ، وتركستان الشرقية وبلاد التبت ،

---

(١٣) كنت أظن انه كتاب مستقل مفقود ، ولكن ابا دلف يبدو انه قسمه الى رسالتين ، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلا عن الاسم الأصلى وهو « عجائب البلدان » ، وقد جرى على ذلك بروكلمان ، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبى دلف ، انما ذكر مكانها كتاب « عجائب البلدان » ٠

(١٤) ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت ٠

ودخـل الصين من مدينة « مقـام البـاب » ، فـوادى المقـام ، فسندابل العاصمة ·· ويقول أبو دلف(١٥) :

ودخلت على ملكهم فخاطبته الرسل بما جاءوا به من تزويجـه ابنته من نوح بن الملك السامانى نصر بن احمـد ، فأجابهم الى ذلك ، وأحسن الى والى الرسل واقمنا فى ضيافته ، حتى نجزت أمور المرأة ، وتم ما جهزها به ، وحملت الى خراسان ، الى نوح بن نصر ، فتزوج بهـا · ويقـول أبو دلف :

وأقمت بسندابل العاصمة مدة ، القى ملكها فى الأحايين ، فيفاوضنى فى أشياء ، ويسألنى عن أمور من أمور بلاد الاسلام ، ثم استأذنته فى الانصراف ، فأذن لى بعـد أن أحسن الى » ·

وغادر أبو دلف الصين الى الهند حتى رجـع الى بلاده عن طريق سـجستان ·

وزادت هـذه الرحلة من مكانة أبى دلف فى دولة السامانيين ، ومن منزلته فى عصره ، وفى الحياة الاسلامية بصفة عامة ·

تنقضى هـذه المشاهد كلها ، ونرى ابن ينبع الكبير يعيش فى ظلال دولة البويهيين ، ولا ندرى كيف كان ذلك ، ولا متى كان ؟

ترك أبو دلف بخارى والسامانيين الى البويهيين ، ووزيرهم الشهير ابن العميد ، ثم وزيرهم الكبير الصاحب بن عبـاد ، والى عـواصمهم الكبرى يتنقل بينها : أصبهان ، والرى ، وبغـداد ، وأصبح رفيع المكانة عند عضـد الدولة الملك البويهى نفسه ·

---

(١٥) ٥ : ٤١٤ معجم البلـدان ·· وفى مروج الذهب للمسعودى المؤرخ (ت ٣٤٦ هـ) جـ ١ صفحة ٤٤٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد : وقـد رأيت ببلخ شيخا جميلا ذا رأى وفهم وقـد دخـل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط ·· فهـل يقصـد المسعودى بذلك أبا دلف ؟؟

وكان أبو الفضل محمد بن العميد (٣٠٠ ـ ٣٦٠ هـ) امام عصره فى الأدب والكتابة والبلاغة ، كما كان له مجده وهيمنته وسلطانه السياسى فى دولة البويهيين ، وكان وزيرا لركن الدولة البويهى (٣٢٠ ـ ٣٦٦ هـ : ٩٣٢ ـ ٩٧٦ م) وذلك من عام ٣٢٨ هـ : ٩٣٩ م ٠

وقد بدأ أبو دلف يتصل به ، والظاهر أنه أقبل عليه ثم أعرض عنه ، فهجاه أبو دلف ، ورد عليه ابن العميد ، مهددا برسالة رواها أبو حيان التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزيرين »(١٦) ، وجاء فيها :

« الآن علمت أيها الشيخ أنك لى مكايد ، والى جميع ما أنهاك عنه مخالف ، وغلى ديدنك المعروف ثابت ، وبفضلة لسانك مسحور » ٠٠

الى أن يقول ابن العميد :

« تقاعست عنى بلا عذر ، ووقفتنى بين وصل وهجر ، فلم أدر كيف أخاطبك ؟ وعلى ماذا أعاتبك ؟ لأنك مشهور بقحة ، ومذكور بسلاطة ، ومعتاد للبهت ، وجار على الكذب » ٠

« وأول ذلك انك تدعى بنوة محمد بن زكريا من ناحية ابنته ، وقد شاهدت محمدا وما خلف بنتا » ٠

ثم يقول ابن العميد فى غضب ظاهر :

ان فى الموت خلاصا منك ، ومفارقة لمثلك ، والله ما أندب الا حسن ظنى بك ، ومباهاتى أهل مجلسى بفضلك ، وقولى : « أبو دلف وما أدراك ما أبو دلف ؟ لا تنظروا الى هزله ، فان وراء ذلك جدا ، وهو المرء الذى قد جمع الله له بين المنظر والمخبر ، وبين الدعوى والبينة ، وبين القول والحجة ، وبين الضمان والوفاء ،وبين الصداقة والشفقة » ٠

---

(١٦) ص ٢٨٩ ـ ٢٩٢ المرجع المذكور ٠

« فما زلت اقـول هـذا واشبهه ، وأصحابى يشيعون قولى بمثـله فى الظاهر ، ويخالفوننى بعلمهم فى الباطن ، حتى كان الثلج لهم سـاعة هـذه • لأنى احتجت الى علمك فخيبت عهدى ، وأقبلت عليـك فأعرضت عنى ، ووهبت لك كلى ، فبخلت ببعضك على •• ولقـد استفدت بمعرفتك تجنب مثلك •• » •

ويقـول ابو حيـان التوحيدى(١٧) :

قلت لأبى دلف : ماذا اجبته عن هـذا الكلام ؟

قال : عملت شيئا لم اجسر على اظهاره ، وخفت صولته ونكايته ، وشره وغائلتـه •

وتوفى ابن العميد عام ٣٦٠ هـ وولى ابنه ابو الفتـح منصب أبيـه فى عهـد ركن الدولة ، ثم فى عهـد مؤيد الدولة الذى كان يؤثر تلميـذ ابن العميد الصاحب بن عبـاد ويقـدمه • وانتهى الأمر بمقتل ابى الفتح الوزير عـــام ٣٦٧ هـ •

اما الصاحب بن عباد (٣٢٤ ـ ٣٨٢ هـ : ٩٣٦ ـ ٩٩٥ م) فهـو الوزير البويهى الكبير الذى وزر لبنى بويه طيلة ثمـانية عشر عـاما (٣٦٧ ـ ٣٨٥ هـ) •

وصـــار ابو دلف قريب المنزلة من الصاحب(١٨) ، يجلس فى مجالسـه فى أصبهان والرى منادمنا ، ومادحـــا ، وكان الصاحب نادرة الدهر ، وأعجـوبة العصر(١٩) ، وظـل وزيرا مدى ثمانية عشر عاما

---

(١٧) ٢٩٢ مثالب الوزيرين •

(١٨) راجـع عنه : ٢/٢٦٨ ـ ٢٧٠ تاريخ الادب العربى لبروكلمان ـ كتابى الحياة الأدبية فى الاندلس والعصر العبـاسى الثانى ـ ١٣ : ٩٧ معجم الأدب لياقـوت •.

(١٩) ١ : ٧٥ وفيـات الاعيـان •

(٣٦٧ — ٣٨٥ هـ) ، وكانت لـه خزانة كتب فيها نحو ربع مليون كتاب(٢٠) ٠

وقد احتف بالصاحب من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى ٠ فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين ، وجمعت حضرة الصاحب بن عباد بأصبهان وجرجان مثل أبى الحسن السلامى ، وأبى سعيد الرستمى ، والبديع الهمذانى ، والقاضى الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلاء ، وأبى دلف ، والصابى ، وسواهم ، ممن يطول ذكرهم كما يقول الثعالبى فى « يتيمة الدهر »(٢١) ٠

ويذكر الثعالبى أبا دلف من شعراء الصاحب ومنادميه وجلاسه(٢٢) ٠

ويقول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر ابن مهلهل الينبعى ، يشعر ويتطبب ويتنجم(٢٣) ٠

وكان الأدباء يجدون فى ظل الصاحب أمنا وأمانا لهم ، مما حل بالبلاد فى عهد البويهيين من فقر مدقع ، فقد صارت العراق — كما يقول المقدسى — بيت الفتن والغلاء(٢٤) ٠ واحترف أكثر العلماء والأدباء صناعة الوراقة ، كأبى حيان التوحيدى (٣٢٠ — ٤١٤ هـ) وغيره ٠

---

(٢٠) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت ٠

(٢١) ١٦٩/٣ اليتيمة ٠

(٢٢) ٣ : ١٨٩ المرجع نفسه ٠

(٢٣) ٢ : ٤٠٠ المرجع ٠

(٢٤) ١١٣ أحسن التقاسيم ٠

واتصل أبو دلف بعضد الدولة(٢٥) الملك البويهى فى بغداد ، وجلس فى مجالسه شاعرا ومنادما ، وتصور لنـا القصة الآتية مكانة أبى دلف عند هذا الملك البويهى الكبير ، وقد رواها الثعالبى فى كتابه « لطائف المعارف » :

جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس لعضد الداولة بشيراز مطايبة ومداعية ، ومحاضرة ، ومذاكرة انتصر فيها أبو دلف على صاحبه انتصارا كبيرا ٠

فأعجب عضد الدولة بكلام أبى دلف ، ووفور حظه من طوافه بالشرق والغرب ، ووقوفه على خصائص البلدان فى كل مكان من العالم الاسلامى ٠٠٠ ولم يملك الا بن صاح بملء فيه بهذه العبارة العجيبة التى لم يقلها ملك فى أحد من الأدباء أو الرعية ، قال عضد الدولة فى تعجب ظاهر :

« لله درك يا أبا دلف ٠٠(٢٦) ٠

ملك يا أبا دلف ينادم الملوك » ٠

وأمر له بخلعة وصلة حسنة ٠

وتدل هذه القصة على ما يلى :

١ ـ كثرة طواف أبى دلف بالعالم الاسلامى ، ووقوفه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلد من بلدانه ٠

٢ ـ حضور بديهته ووفرة أدبه ٠

٣ ـ ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة ٠

---

(٢٥) من شعراء عضد الدولة : المتنبى ، والسلامى ، وغيرهما ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده أبو على الفارسى الذى أهداه كتابه « الايضاح » (٣ : ٦٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه) ٠

(٢٦) ٢٣٩ المرجع السابق ٠

٤ ـ وفرة حظه من بين منادم الملوى وحسن مجالسهم ·

وترفى عضد الدولة عام ٣٧٣ هـ ثم توفى بعده بعده بزمن ليس بطويل وزيره الصاحب ، وذلك عام ٣٨٥ هـ ·

ـ ٣ ـ

ويحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام ·

ويعد من أشهر الرحالة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى ، وقد بهر العالم بما قام به من رحلات ، وما كتبه عن مشاهداته ووصافه للبلاد التى رحل اليها وطاف بها ·· وقد حفظ لنا ابن النديم فى كتابه « الفهرست » وياقوت فى « عجائب المخلوقات » ، « آثار البلاد » مقتطفات كبيرة من وصف أبى دلف للبلاد التى جابها · والأسفار التى قام بها رحالتنا العالمى المسلم أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، فى أنحاء كثيرة من العالم المعروف آنذاك : الهند والصين ، وآسيا الوسطى ، وهى الأسفار والرحلات التى طار ذكرها ، وشهر أمرها بين الناس فى عصر أبى دلف وبعد عصره حتى اليوم ، والتى نال أبو دلف بها فى حياته مجدا كبيرا ، قاده الى قصور الملوك والوزراء والأمراء ، ونال بها بعد وفاته مجدا تليدا خالدا فيما كتبه عنه أعلام المستشرقين من كتابات ، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات ، وما سجل عنه فى دوائر المعارف من عجائب الكشوف الجغرافية ·

يصفه ابن النديم(٢٧) بالجوالة ، ويذكر القزوينى أنه كان جوالة مشهورا جاب البلاد وشاهد عجائبها(٢٨) ، وأنه كان سياحا زار البلاد ، وأخبر بعجائبها(٢٩) ·

(٢٧) ٣٤٦/١ الفهرست ·
(٢٨) ٢٦٧/٢ آثار البلاد ·
(٢٩) ٩٧ عجائب المخلوقات ·

ويذكر كذلك القزوينى بلاد بهى وعجائبها وهى من بلاد الترك ، ثم يقول : أخبر بهـذه كلها ، أعنى بلاد الترك وقبائلها ، مسعر ، فانه كان سـياحة رآها كلهـا (٣٠) ٠

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد لـه الباحثون من المستشرقين بالدقـة والصـدق والواقـع ، وان كان ياقـوت الحمـوى يقول عنه : انه كان يحكى عنه الكذب(٣١) ، ويعنى بذلك أن رحـلاته كان بعضها من نسج الخيال ، وتكنل لنـا بالرد على هذا الاتهام كراتشوفسكى وسواه من المستشرقين ، وسيأتى كلامهم ٠

ولقـــد كان أبو دلف احـــد الباحثين المعـدودين الذين مكنتهم وحـدة الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى من القيام برحلات خطيرة ، على جانب كبير من الأهمية ٠

فمع أن العالم الاسلامى فى عصر أبى دلف ، وهـو القرن الرابع الهجـرى ، كان مقسما الى دول كثيرة ، استلبت عن خلافـة بغـداد ، وتركت التبعية السياسية للخلفاء العباسيين ، الا أنه كان موحـد العقيدة واللغـة والثقافة والحضارة ، خاضعا للتأثير الاسلامى وحـده ، ومن ثم كان فى امكان أبى دلف أن يجوب البـــلاد ، وأن يسير فى الممـالك الاسلامية ، للبحث والكشف والتنقيب ، لا يحـده حـد ، ولا يغـله قيد ، ولا يحـول بينه وبين نهمه العلمى حائل ٠

وقـد ألف أبو دلف « الرسالة الأولى » وتحتوى على رحلتـه غبر الصين والهند التى قام بها عام ٣٣١ هـ ٩٤٢ م ، وقـد قـام المستشرق الألمـانى رور صـوبر عام ١٩٣٩ بتحقيقها ، ويبـدو أن أبا دلف جمـع مادتها من الذاكرة بعد قيـامه برحلته هـذه بمـدة تطـول أو تقصر ، وتتضمن الرسالة الى جانلا صـدقها الكثير من المعـــلومات التقريبية والخيالية عن هـذه البلاد الواسعة ، التى ساح فيها ٠

---

(٣٠) ٨٥٩ المرجـع السـابق ٠

(٣١) ٣٢٦/٥ معجم البلـدان لياقـوت ٠

وفى مقــدمة هــذن الرسالة يقول أبو دلف(٣٢) ٠

« انى لمـا رأيتكما يا سيدى ـ اطـــال الله بقـاءكما ـ لهجــين بالتصنيف ، مولعين بالتأليف ، احببت أن لا أخلى دستوركما ، وقانون حكمتكما ، من فائدة وقعت الى مشاهدتها ، وأعجـــوبة رمت بى الأيام اليها ، ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ، ويصـــبو الى استيفاء قراءته القلب ، فرأيت معاونتكما ، لـما وشــج بيننــا من الاخــاء ، وتوكــد من المودة والصــفاء » ٠

والظــاهر ـ كما ارجـــح ـ أنه يخاطب احــد الملوك الساسانيين والصاحب بن عباد ، وأنه حين كتب هــذه الرسالة اهــدى منها نسخة الى هــذا ، واخرى الى ذاك ، وهــذا يدل على انه كتبها بعــد عهــد طــويل من قيــامه بالرحلة ٠

وقــد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هــذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢ ، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها الى الألمــانية ، وشاركة فى ذلك المستشرق فراين فى « مجموعة الرجلات والنصوص الجغرافية التى نشرها عن الشرق الأقصى ٠

وألقى المستشرق الروسى غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثــا عنها فى المؤتمر الدولى الثالث عشر للمستشرقين المنعقــد فى بطرسبرج ٠

ودرسها روزن ، وماركفارت (١٩٠٣) ، ووضح خط رحلة أبى دلف الى الصــين ٠

وكذلك فعمل بارتولد ، ومينورسكى (١٧٦٧) الذى قال عنها : أن فى الرحلة من الوقائع بعضها حقيقى ، وبعضها من نسج الخيـــال ، وفى وصف ابى دلف لرجلاته ـ كما يقول مينورسكى ـ خلط وتعقيــد

---

(٣٢) ٤٠٨/٥ و ٤٠٩ معجم البلــدان ٠

شديدان ، وان كان يعد خلاصة للمعارف الجغرافية آنذاك عن الصين والهند ، ويشكك أخيرا هذا المستشرق فى حدوث رحلات أبى دلف ٠

ويرد عليه كراتشرفسكى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »(٣٣) مؤكدا أن رحلة أبى دلف الى الصين واقعة حقيقية لا شك فيها ، ويؤكد حدوثها روايات ابن النديم فى كتابة « الفهرست » عن أبى دلف(٣٤) ٠ بل أن الرجل لم يترك أدنى شك لدى خبير بالموضوع مثل فيراين (١٩١٣) ٠

ويؤكد رور صوير (١٩٣٩) أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال ، اذ أن بعض التفاصيل المتعلقة بها وجدت دلائل على صحتها فى سفارات متأخرة ، مثل سفارة شاهرخ ، كما أكد الباحثون دقة ملاحظات أبى دلف فى محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية وفى وصفه لمشاهده عامة ٠

وفى هذه الرحلة يذكر ابن دلف الأوانى الصينية وانهـا كانت مفضلة فى الأسواق ، وأن الخزف الصينى كان يقلد فى بعض البلدان ، ولا سيما فى مليبار وايران ٠

وفيما بين عام ٣٣١ ـ ٣٤١ هـ : ٩٤٢ ـ ٩٥٢ م ، زار أبو دلف بتشجيع من الصاحب الوزير على ما أظن وكما اشار الى ذلك الثعالبى ف « اليتيمة » ، امكن مختلفة فى ايران وآسيا الوسطى فى حماية الوالى على سيستان من قبل ابى محمد بن أحمد (٣٣١ ـ ٣٥٢ : ٩٤٢ ـ ٩٦٣) وألف أبو دلف فى وصف هذه الرحلة ومشاهد منها عبر ارمينية وأذربيجان وايران رسالة سماها « الرسالة الثانية » ، ويقول فى مقدمتها على طريقته نفسها فى مقدمة الرسالة الأولى ٠

« جردت لكما ، يا من أنا عبدكما ، أدام الله لكما العز والتاييد ،

---

(٣٣) ص ١٨٩ من الكتاب ٠

(٣٤) ٣٤٦ و ٣٤٧ الفهرست : ٣٥٠ و ٣٥١ الفهرست أيضا ٠

والقـدرة والتمكين ، جملة من سفرى من بخارى الى الصين ، ورجوعى منها على الهنـد ، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها ، وسلكته من قبائلها ، ورأيت الان تجريد رسـالة ثانية ، تجمـع عامة ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عاينته · لينتفع به المعتبرون ، ويتدرب به أولو العـزة والطمأنينة ، ويثقف به رأى من عجز عن سياحة الأرض »(٣٥) ·

واللذان يوجه هما أبو دلف اليهما فى هـذه الرسالة هما اللذان وجه اليهما الرسالة الأولى ، كما يبـدو من هـذه المقـدمة الموجزة الصغيرة ·

ولهـذه الرسالة الثانية فى وصف رحلته فى أواسط آسيا أهميـة كبيرة ، كما سنذكر بعـد قليـل ·

وتبـدأ وقائع هـذه الرحلة التى تسجلها الرسالة الثانية من مدينة « الشيز » فى جنوبى أذربيجان لتشمل أماكن كثيرة فى خراسان وايران والقوقاز وارمينية · ومن هنـا كانت الرسالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام والتاريخ الجغرافى والجيولوجى والأثرى لهـذه البـلاد ، وهى الى جانب هـــذا تحتوى على كثير من الأشياء الطريفـــة ، والمشاهدات العجيبـة ، والنـوادر الغريبة ، وبعضها ممـا يحير العقـول ·

وتتميز هـذه الرسالة بتركيز شـديد ، ودقـة متناهية وموضوعية غريبة ، كما تتميز بمادتها العلمية القيمة التى تضعها فى عـداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافى لآسـيا الوسطى · وتحتـوى على معلومات جلية متعلقة بالمصادر النفطية فى باكو ، وعن المعادن المفيدة فى ارمينية ، وأبو دلف أحـد الرحالة الأوائل الذين تحـدثوا عن استخراج النفط فى باكـو ، وما أروع ما كتبـه عن معـدنيات وطواحين تفليس ،

---

(٣٥) ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة ، نشر عالم الكتب ـ مطبعة مخيمر · وقـد وردت كلمة ثانية ، فى الرسالة (ص ٢٩) محرفة الى كلمـة « شـافية » وهى خطأ ·

ولا يستغنى عن دراســتها مؤرخ او جغرافى أو جيولوجى ، وفيها يذكر أبو دلف أكثر من أربعين موضعا يوجـد فيها المعـادن ، وأماكن اخرى فيها آثار للفرس أو للساسانيين ·

ولقـد حقق مينورسكى هـذه الرسالة ، وطبعت بمصر عام ١٩٥٠ فى ٣١ صـحفة بالنص العـربى + ١٣٦ صـفحة الترجمـة الانجليزية والدراســة ·

ثم طبعت فى موسكو بتحقيق خالدوف وبلغاركوف عام ١٩٦٦م ·

وطبع تحقيقهما فى القاهرة بترجمـة محمـد منير موسى عام ١٩٩٦٦ م ·

وفى عام ١٩٢٤ عثر فى مدينة مشهد الايرانية على مخطـوطة تشتمل على اربع رســائل :

١ ـ رســالة أبى دلــف ·
٢ ـ رســالة ابن فضــلان ·
٣ ـ رســالة فى أخبار البلــدان لابن الفقيه ·
٤ ـ رســالة اخــرى ·

وأصبح لهـذه المخطوطة اهميـة كبيرة فى تراث أبى دلف ، وفى تاريخ البحث العلمى الجغرافى القـديم ·

ورســالة أبى دلف فى مخطوطة مشـــهد تشتمل على رســالتيه الأولى والثانية وقـد ذكرت على أنهما كتاب واحـد ·

ويبـدو أن هـذا الكتاب كان قـديما يسمى « عجائب البلدان » كما نقلنـا عن القزوينى وياقوت ، وذكره بهـذا الاسم كذلك بروكلمان ·

وابو دلف فى رحلاته يعنى عناية شديدة بذكر أماكن المعـادن والآثار ، وطالمـا يقف أمام الأشياء وقفة تأمل للوصول الى دخائلها ·

ومن اهمية البحث الجغرافى الذى قــام به أبو دلف انه عرض لمدينة الشيز ، وهى بين المراغة وزنجان وشهر زور ، وتوجد الآن فى وادى ساركوتز فى الاتحاد السوفيتى ٠ ومن وصف ابى دلف لهذه المدينة : امكن للعلماء الروس تحديدها واستخراج آثار تخت سليمان من تحت طبقاتها الأرضية ٠ ومن مثل تحقيقاته العلمية ما ذكره فى صعوده الى قمة جبل ديكاوند فى فارس ودخوله كهفا فى هذا الجبل ورصده لظاهرة وجود نار مشتعلة فيه(٣٦) ٠

ويذكر أبو دلف أنه سار فى مغارة خوارزم ، ورأى بها آثارا كثيرة لجماعة من ملوك العرب والعجم ، ويتحدث عن انخساف بعض قراها تحت الأرض بنحو مائة قامة ٠

ويشكك بعض الباحثين فى وصول ابى دلف الى خوارزم بدعوى أن معلوماته عن هذه البلاد عامة ضحلة ، ولكن ذلك لا يقف حجة لهذا الشك ٠

وبعد فقد كان ابو دلف ابن ينبع ، من أعظم الرحالين الجغرافيين المسلمين ، الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجرى ٠ وقد نالت رسالتاه أعظم اهتمام فى عالم الاستشراق ، وأولاه المستشرقون كثيرا من العناية والدراسة والبحث ٠

وعمل أبى دلف فى ميدان الرحلة متعدد : فهو يظهر لنا فى صورة الرحالة الوصاف للجغرافية الاقليمية القديمة ٠

كما يظهر فى صورة الجغرافى المتمكن ، والأثرى المنقب ، والجيولوجى الدقيق العالم بطبقات الأرض وصخورها ، مما يرفع من منزلته بين العلماء ٠

---

(٣٦) الرسالة الثانية ص ٨٧ ٠

ويظهر لنا كذلك فى صورة الطبيب الذى يعلم أماكن المصحات الطبيعية التى تلائم طبيعة المرضى والتى تساعدهم على الشفاء ٠

ويصدق عليه ما قاله المسعودى عن نفسه : « قطعنا بلاد السند والزنج ، والصين والزانج ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بأواسط ارمينية وأذربيجان »(٣٧) ٠

ـ ٤ ـ

وقد عاش أبو دلف عالم ينبع وأديبها وشاعرها فى عصر ازدهار الشعر ونهضته فى القرن الرابع الهجرى ٠

وشهر ـ أول ما شهر ابن ينبع ـ بالشعر ، فقصد به ملوك الساسانيين ووزراءهم يمدحهم ، وينشد فيهم القصائد الطوال ، ثم ذهب الى البويهيين ، ملوكهم ووزرائهم ، فمدحهم بقصائده الجياد ٠

ومن الأسف أن شعر أبى دلف أو ديوانه يعد مفقودا حتى اليوم ، ولا نعرف له الا القليل جدا من شعره ، مما سجله الثعالبى فى « اليتيمة » ، ومن أهم ما حفظه الثعالبى لنا من هذا التراث الشعرى قصيدة أبى دلف ـ أو رائيته الساسانية ٠

---

(٣٩) مقدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) ٠

الفصـل الرابـع

أبو دلف فى كتابات الباحثين ـ عصره ـ صـور من حياته

ابو دلـف فى كتـابات الباحثين :

أبو دلف شاعر عربى كبير ، مجهول شانه ، مغمور تاريخه ، لم يذكره الا القـلة من المؤلفين القـدماء ، ونسيه المحـدثون نسيانا تاما ٠

وهـو من الجزيرة العربية ، من ينبع عاش القرن الرابع الهجرى كله او جلـه ، يجـوب البلاد ، ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء، تراه مطوفا فى كل مكان من بخارى الى الصين والهند ، ومن فارس الى أرمينية وأذربيجان وطبرستان ، وبلاد الأكراد ، ويصف كل ما شاهده ، ويدون كل ما يلاحظه ، فى دقـة تامة ، وعناية بالتفاصيل ، مما اذهـل اوستشرقين ، فكتبوا عنه جغرافيا من الطراز الأول ، ومن اشهر الرحالة فى القرن الرابع ٠

وأبو دلف من هـــذا الجانب مصـــدر اصـــيل لكل الجغرافيين المسلمين ، الذين أتوا بعــده ، ومن بينهم : ياقوت الحمـوى فى كتـابه « معجم البلـدان » ، والقزوينى فى كتابيــه : « عجـائب المخـلوقات » و « آثار البـلاد » ٠

والمصـدر العربى القـديم الذى ترجم لأبى دلف شاعرا ترجمـة ادبية ، ليس فيها شىء من التفصيل عن حيـاته ، هـو كتاب « يتيمـة الدهـر » لأبى منصور الثعـــالبى شيخ الأدباء فى أواخر القرن الرابع وأوائل القـرن الخامس الهجـــرى (المتوفى عام ٤٢٩ هـ) ، فقـد ذكره الثعالبى فى البـاب السادس الذى خصـه بالشعراء الطارئين من الآفاق على الوزير الصاحب بن عبـاد ، وقال عنـه »

« أبو دلف الخزرجى الينبوعى ، مسعر بن مهلهل ، شـــاعر كثير

الملح والظرف ، مشحوذ المـدية فى الجـدية ، خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب فى خـدمة العـلوم والآداب » ، ويستمر الثعالبى فى الحـديث عن أبى دلف ، فيقول : « كان ينتاب ـ يقصـد ـ حضرة الصاحب بأصبهان ، ويكثر المقـام عنده ، ويتزود كتبه ـ أى رسائله التى تتضمن التوصية ـ فى أسفاره » ٠

ويشير الثعالبى الى معـركة الهجـاء التى دارت بين أبى دلف والشاعر السلامى (٣٣٦ ـ ٣٩٤ هـ) ٠

ويذكر شعرا لأبى دلف ، وقصيدته الساسانية الطويلة(١) ٠

وفى موضع آخر من اليتيمـة يقول الثعالبى عنه : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكمى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبغى ، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحسد السلامى على منزلته(٢) ٠

ويشير الثعالبى الى أبى دلف فى بعض كتبـه الأخرى اشـارات عابرة ، مثل كتـابه « لطائف المعـارف » ٠

ونجـد نقولا جغرافية كثيرة عنه فى : « عجـائب المخـلوقات » و « آثار البـلاد »(٣) ، وهما للقزوينى ، وفى « معجم البلـدان » لياقوت الذى يشير الى أبى دلف فى ٣٤ اقتباسا ، ودراسات كراتشوفسكى تذكر ٢٤ اقتباسا لا يذكر فيها ياقـوت اسم أبى دلف ٠

وفى دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « مسعر » ترجمة لـه تبين

---

(١) راجـع ٣ : ٢٥٢ وما بعـدها يتيمـة الدهـر ٠ للثعـالبى ـ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ٠

(٢) ٢ : ٤٠٠ يتيمـة الدهـر ٠

(٣) فى كتـاب « آثار البـلاد » يوجـد ٢٤ اقتباسا من « الرسالة الثانية لأبى دلف » وان كان لا يشير الى أبى دلف الا فى سبع منها ، وفى عجائب المخلوقات توجـد كذلك اشارات كثيرة لـه ، وأربع اقتباسات دون اشـارة الى اسمه ٠

الكثير من دراســـات المستشرقين عنـــه رحالة كبيرا ، وجغرافيـــا مشـــهورا(٤) ٠

وتجيء اشارات صغيرة عنه فى كتاب « بلاد ينبع » للشيخ حمـــد الجاســـر(٥) ٠

وفى كتاب الأعـلام للزركلى ترجمـة لأبى دلف فى عـدة سـطور ومما جاء فيهـا عنه : شاغر رحالة ، وكـان يكنى بالرحالة الحجازى ، قام برحلة ممتعـة الى الشرق الأقصى ، وكتب ما شاهـده فى تلك الديار فى كتاب ضخم ، نقـله المستشرقون عنه الى مختلف اللغات الأوربية ، تجاوز التسعين من عمره توفى نحـو عام ٣٩٠ هـ(٦) ٠

ويلاحظ الشيخ حمد الجاسر على الترجمة امرين :

الأول أن الزركلى نسبه الى ينبع البحـر ، وهـو من ينبع النخل ٠

والثانى قوله : فى « كتـاب ضخم » ٠٠ ويقول العلامة الجاسر : انه ليس مجلـدا ضخما بل رســـالة ، وقـد حققها المستشرق مينورسكى وطبعت فى مصر سنة ١٩٥٥ فى ٣١ صـفحة والنص العربى والترجمـة الانجليزية والدراســة فى ١٣٦ صفحة ٠

وكلام العلامة الجاسر صحيح فى أنه ليس كتابا ضخما بل رسالة ، وأما قـوله : « ان الرسالة حققها المستشرق مينورسكى الخ » فذلك ليس عن رسالة أبى دلف فى وصف رحلته الى الشرق الأقصى ، وهى التى تسمى بالرسالة الأولى ، بل رسالة أبى دلف فى وصف رحلتـه فى آسيا الوسطى وهى التى تسمى الرسالة الثانية ٠

---

(٤) راجـع الطبعة الانجليزية الجـديدة من دائرة المعارف الاسلامية وقـد ترجم النص الانجليزى لهـذا البحث الأستاذ وديع فلسطين ـ الطبعة العربية لم تصـل الى هـذه المـادة ٠

(٥) ١١٧ و ١٤٥ بـلاد ينبـع ٠

(٦) ٨ : ١٠٩ الأعـلام للزركلى ٠

والرسالة الأولى لأبى دلف عنى بتحقيقها اومستشرق الألمـــانى روبر صـــوير ٠

أما الرسالة الثانية فعنى بتحقيقها المستشرقون الروس ، فدرسها المستشرق كراتشوفسكى ، ومينورسكى ، وحققها مينورسكى ، ثم خالدوف ويولغاكوف معا فى نصها العربى ، وهما مدرسان بجامعة ليننجراد ٠

عصـر ابى دلـف :

عاش أبو دلف فى القرن الرابع الهجـــرى ، العاشر الميلادى ٠٠ وشاهد كل أحداث هـــذا القرن وغرائبه ، بما ساد فيـــه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب ، وبما سادة من تطورات فكرية وسياسية كبيرة ، كان فى مقدمتها : انتهاء نفوذ الخلافة العباسية ، باستيلاء البويهيين على بغـداد عام ٣٣٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة فى أنحاء العـالم الاسلامى الذى كانت من قبـل تجمعـه رابطـة سياسية واحـدة ، ومن هـذه الدول :

١ ـ الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) ٠

٢ ـ الدولة الفاطمية بمصر والشام أيضا (٣٥٩ ـ ٥٦٧ هـ) ٠

٣ ـ والحمدانية بحلب والموصـل (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ) ٠

٤ ـ والسامانية فى تركستان ، وعاصمتها بخـــارى (٢٧١ ـ ٣٨٩ هـ) ٠

٥ ـ والزيارية فى طبرستان ، ومن ملوكهـا الشاعر الأمير قابوس ابن وشمكير (٣٦٦ ـ ٤٠٣ هـ) ٠

٦ ـ والغزنوية فى غزنة والهند ، ومن أشهر أمرائها السلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ ـ ٤٢١ هـ) ٠

٧ ـ ودولة سجستان ومن اشهر أمرائها خلف بن أحمد ، وهو من احفاد الليث(٧) بن الصفار ، وامتدت هذه الدولة من عام ٢٥٤ هـ حتى عام ٣٩٠ هـ ٠

٧ ـ الدولة العلوية فى طبرستان ، ويذكر ابو دلف طائفة من ملوكها حتى عصره(٨) (٢٥٠ ـ ٣١٦ هـ) ٠

وقد أثرت الاضطرابات والحروب بين هذه الدول فى القرن الرابع الهجرى فى احوال البلاد الاسلامية والمسلمين ٠

نشأة أبى دلف الأولى :

لا نعلم شيئا عن حياة أبى دلف الأولى ونشأته ٠ وبلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة ـ وشب عربيا كريما عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة ، فى وسامة ولطف ٠ وكانت ينبع النخل آنذاك مركزا من مراكز العلم والأدب والشعر ، وصار أبو دلف شاعرا ، وعرف كذلك طبيبا ومنجما ، وليست « ساسانيته » بمناقضة لعزة نفسه ، فقد كانت ساسانية وفكاهة وأدب وطواف بالآفاق ٠

وفجأة ينبو بأبى دلف وطنه ، وتسير به الحياة الى الأمير السامانى نصر بن أحمد (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ : ٩١٤ ـ ٩٤٣ م) ، فيحتل عنده منزلة عالية فى دولته ، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير ، ومهما كان ، فقد صار أبو دلف شاعر الأمير ونديمه ، وصار كذلك سفيره فى كثير من المهام الرسمية ٠٠ كما سنرى ذلك فى الفصل التالى ٠

---

(٧) ٣ : ١٨٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه ٠

(٨) ٨٣ و ٨٤ الرسالة الثانية لأبى دلف ، ـ نشر عالم الكتب بالقاهرة ٠

الفصل الخامس

أبو دلف فى ظلال السامانيين

ـ ١ ـ

السامانيون(١) اسرة فارسية كبيرة لعبت دورا خطيرا فى القرن الثالث الهجرى حتى نال اميرها نصر السامانى (عام ٢٦١ هـ) فى عهد الخليفة المعتمد على الله استقلالا ذاتيا ، وظل يحكم بلاده من عاصمته سمرقند حتى وفاته سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م ٠٠ وخلفه من ذريته :

١ ـ اسماعيل السامانى (٢٧٩ ـ ٢٩٥ هـ) ٠

٢ ـ احمد بن اسماعيل (٢٩٥ ـ ٣٠١ هـ : ٩٠٧ ـ ٩١٤ م) ٠

٣ ـ نصر بن احمد السامانى (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ : ٩١٤ ـ ٩٤٣ م)، وهو الذى عاش فى ظلاله أبو دلف ، ولا نعرف شيئا عن الظروف التى قادته الى بلاط هذا الأمير ، ولا مقدمات صلته به ٠ وفى عهد هذا الأمير السامانى كانت الدولة السامانية قد بلغت أوج عزتها وذروة مجدها ٠

٤ ـ نوح بن نصر (٣٣١ ـ ٣٤٣ هـ : ٩٤٣ ـ ٩٥٤ م) ٠

٥ ـ الى ملوك آخرين طار صيتهم فى العالم الاسلامى ، ومنهم : نصر بن نوح السامانى (٣٤٣ ـ ٣٧٦ هـ) ، ونوح بن منصور (٣٦٦ ـ ٣٨٧ هـ) ٠

وكانت بخارى قد صارت عاصمة السامانيين ، وأصبحت تزخر بالأدباء والعلماء والشعراء والحكماء ٠

---

(١) راجع ١١ : ٧٦ ـ ٨٢ دائرة المعارف الاسلامية ٠

وكان الجيهانى(٢) أبو عبد الله محمد بن احمد بن نصر وزيرا للسامانيين (توفى عام ٣٣٠ هـ/٩٤١ م) ، وكان يشجع الأدباء ، ويحتفى بالعلماء ، ولعله هو الذى احتضن ابا دلف ، أو اتخذه كاتبا له ، وعن طريقه توطدت صلته بالملك السامانى نصر بن احمد .

– ٢ –

وفى عهد الملك نصر بن احمد وفد الى بخارى وفد هندى برياسة الأمير الهندى كلاتلى فى سفارة هندية الى بلاط الملك السامانى ، وانجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم الى بلادهم بعث معه الملك شاعره أبا دلف ليكون مرافقا لهم .

وزار ابو دلف فى هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل مليار ، ووصف ذلك كله فى كتاب ألفه بعنوان « عجائب البلدان » ، والظاهر أنه مجموع رسالتيه فى وصف رحلاته(٣) .

---

(٢) راجع عنه ٢١٩ – ٢٢٣ تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشوفسكى ، وينقل القزوينى عن الجيهانى كثيرا فى المسالك والممالك الشرقية (راجع كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى) .

وينسب هذا الوزير الى جيهان احدى مدن خراسان ، ويقول ياقوت عنه (٣ : ١٩٥ معجم البلدان) : انه كان اديبا فاضلا . وقد الف الجيهانى كتابا فى صورة العالم – أى فى الجغرافيا – بعنوان « المسالك فى معرفة الممالك » وذلك نحو عام ٣١٠ هـ : ٩٢٢ ، وهو مفقود .

والجيهانى هو الذى شجع أبا دلف وابن فضلان على أعمالهم الجغرافية .

وهو الذى اغرى أبا زيد البلخى (٢٣٥ – ٣١٨ هـ) الفلكى بالانتقال الى بخارى ، وكان بين البلخى والجيهانى صلة وثيقة ، ولكن البلخى اعتذر له ، وألف البلخى كتابه « صورة الأقاليم عام ٣٠٨ هـ ٩٢٠ م » بتشجيع من الجيهانى . وفى مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت مخطوط بعنوان « ذكر المسافات وصورة الأقاليم لأبى زيد البلخى » وهو برقم ١٤ جغرافيا – ويذكر الأستاذ احمد عبد الغفور عطار أن نسبة هذا المخطوط الى البلخى خطأ وأنه كتاب ابن خرداذبة المطبوع بعنوان « المسالك والممالك » .

(٣) كنت أظن أنه كتاب مستقبل مفقود ، ولكن أبا دلف يبدو أنه قسمه

=

وفى آخر حكم نصر بن أحمد السامانى وفد على بخارى كذلك وفد صينى ، ويقص أبو دلف قصة هذا الوفد ، فيقول(٤) :

« ان رسل ملك الصين جاءوا ليخطبوا ابنة الملك السامانى لملكهم ، فأبى نصر بن احمد ذلك ، واستنكره ، لحظر الشريعة له ، فلما ابى ذلك عرضوا عليه أن يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين ، فأجاب فى ذلك ، فاغتنمت قصد الصين معهم » .

وكان ذلك نحو عام ٣٣١ هـ : ٩٤٢ م ، وقد عبر ابو دلف هو والوفد الصينى تركستان الغربية ، وتركستان الشرقية وبلاد التبت ، ودخل الصين من مدينة « مقام الباب » ، فوادى المقام ، فسند ابل العاصمة .. ويقول أبو دلف :

واقمت بسندابل العاصمة مدة ، ألقى ملكهـا فى الأحايين ، فيفاوضنى فى اشياء ، ويسالنى عن أمور من امور بلاد الاسلام ، ثم استأذنته فى الانصراف ، فاذن لى بعد ان أحسن الى .. » .

وغادر أبو دلف الصين الى الهند حتى رجع الى بلاده عن طريق سجستان(٦) .

الى رسالتين ، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلا عن الاسم الأصلى وهو ـ عجائب البلدان » ، وقد جرى على ذلك بروكلمان ، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبى دلف ، وانما ذكر مكانها كتاب ـ عجائب البلدان » .

(٤) ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت .

(٥) ٥ : ٤١٤ معجم البلدان .. وفى مروج الذهب للمسعودى المؤرخ (ت ٣٤٦ هـ) ج ١ صفحة ٣٤٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد : وقد رأيت ببلخ شيخا جميلا ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط .. فهل يقصد المسعودى بذلك أبا دلف ؟

(٦) يروى أن الاسلام دخل الصين فى عهد الخليفة عثمان وفى عصر أحد ملوك آل تانغ يقال له : تائى جون ، ويقال أن الملك الصينى الذى

وزادت هــذه الرحلة من مكانة أبى دلــف فى دولة السامانيين ، ومن منزلته فى عصره ، وفى الحيــاة الاسلامية بصفة عامة ٠

وخلال حكم امبراطور الصين « هــوان تسونج » ٧١٢ ـ ٧٥٦ م وقعت فعلا صــدامات مسلحة بين الخلفــاء العرب وهــذا الأمبراطور فى ثلاث مناسبات معروفة وكان أعنفها عــام ١٣٤ هجرية وذلك فى معــركة « تالاس » التاريخية وفى هــذه المعركة هــزم الجيش الصينى بقيــادة « كاوهسين » على يد الجيش العربى وســجلت هزيمة كبرى فى ســلطة الامبراطور « تانج » وسط آسيا وبدأت السيطرة العربية على هــذا الجزء من العــالم ٠

ويقــول التاريخ الصينى المخطوط فى هــذه المنطقــة أن علاقات الصــداقة قــد عادت بعــد ست سنوات بين الشعبين الصينى والعربى ٠٠ بل أن شعبنا العربى ساعد بالجنود العرب المسلحين بلاط تانج لاحباط عصيان يقــوده جنرال الحــدود « آن لوشان » ٠

وأول من كتب عن الاسلام باللغــة الصينية هــو « تدهــوان » الذى كان قــد أسر فى معركة « تالاس » ثم قضى نحــو ١١ ـ ١٢ سنة وهــو يتجــول فى شبه الجزيرة العربية قبــل أن يعــود الى مدينة « كانتون » مــع قافلة تجارية وقــد نقــل هــذا الأسير عــددا من الحرف الصناعية وكثيرا من الفنــون ٠

وأن عــددا كبيرا من البعثات والتجارة والجنود العــرب قــد زاروا الصين خــلال حكم تانج فى القرن السابع ، وحتى القرن العاشر وهـــو

=

دخــل الاسلام فى بلاده فى عهــده هــو « ســوزون » من آل تانغ أيضــا ، ويقال كذلك أن الاسلام دخــل الصين فى عصر الرسول عــام ٦٢٨ على يد صحابى هــو ذهاب بن أبى كبشة ، بعثــه الرسول الى كائى هــونغ من ملوك آل سوتى ٠

الزمن الذى دخل فيه الاسلام الى الصين ·· وقد ظهرت آثار حول الاسلام والعرب فى هذه الفترة ولكنها قليلة جدا ·

فهناك اللوحة الشهيرة النادرة التى تشير الى تاريخ بناء جامع شيان فى السنة ٧٤٢ لحكم منج ، والمعلومات الأكيدة تثبت بناء هذا المسجد فى القرن السادس عشر ·

كما أن مئذنة مسجد برزتج ،وكذلك القبر الملاصق له والذى يقال أنه قبر « الوقاص » من صحابة النبى صلى الله عليه وسلم،قد ثبت أنه بنى أيام حكم « سونج » بالقرن العاشر الى الثالث عشر » كما أنه ليست هناك أية اشارة فى التاريخ الصينى الى هذا الموضوع ·

ولكن هناك قول فى الصين بأن مدافن الملائكة فى ليخشان بشوانشكو بمقاطعة فوكين والذى يطلق عليها القبور المقدسة لملائكة الرحمة وتنسب للملاك الثالث والملاك الرابع اللذين أتيا للصلاة كما يقولون ، هنا خلال حكم تانج وقد وصفوهم بالملائكة لأنهم أول المسلمين فى هذه الديار ·

ولكن هذه القبور فى الحقيقة هى قبور عربية لأولئك العرب الذين عاشوا أيام حكم سونج عندما كان العرب ينظرون الى هذه المقاطعة ويسمونها مقاطعة الزيتون وهى أكبر ميناء فى العالم كما وصفها الرحالة العربى ابن بطوطه ·

وقد اكتشف فى الأسابيع الماضية بمقبرة سيان الاسلامية ثلاث قطع لعملة ذهبية عربية وهذه بقايا أصلية لهذا العصر الاسلامى فى المنطقة ·· وقد فحصت هذه المقبرة والتى اكتشفت حديثا عام ١٩٦٤ وحفرت عام ١٩٦٥ بواسطة لجنة الآثار الصينية ·

وقد اتضح أن هذه المقابر شبيهة بنفس المقابر الخاصة فى نفس الفترة من الزمن والتى عثر عليها فى مدينة سيان عاصمة الصين

قـديما وقـد بنيت قباب القبور من الطـوب المربع الدائرى ولـه باب فى الناحية الجنوبية يفتح على ممر لـه قبـة يؤدى الى منحـدر ·

وقـد عثر داخـل هـذه القبور الحـديثة على ثلاث قطع ذهبيـة وثلاث جرات فخارية وأنية من الخزف الصينى وعلى جانبى كل قطعـة عمـلة توجـد نقوش كتبت بالكوفية ·

ويقول الصينيون انه منذ ظهر الاسلام فى شـبه الجزيرة العربية ، فانه قـد نجح فى أقـل من عشرين عاما فى النفاذ الى سوريا والعراق ومصر · وفى البداية لم يكن للحكام المسلمين عملتهم الخاصة بل كانوا يستخدمون عملات بيزنطـه والعملة الساسانية فى بلاد الفرس والتى كانت منتشرة حينئذ · ولكـــن سرعان ما بدأوا يصـــنعون عملتهم وان حافظـوا على الشكل القـائم ·

وقـد تم انقلاب العملة فى سنة ٧٧ هجرية « ٧٩٦ ـ ٦٩٧ ميلادية » حيث لم تعـد ، وفق المنطق الاسلامى ، فهناك صور للبشر أو الحيوانات على العملة ·· وكانت النقوش مقتصرة على اقتباسات من القرآن · وقـد تغيرت عملات كل البلدان الاسلامية بعـد ذلك الى نفس النمط ·· ويضيف رجال الآثار الصينيون قـولهم :

ان هـذه العملات لهـا أهمية خاصة ، لا لأنها أول عملات توجد فى الصين للعصر الأموى ، بل لأنها أول عمـلات اســلامية توجـد فى الصين · والعملات الاسلامية الأخرى التى وجـدت فى سينكيانج تعود الى زمن متأخر جـدا ، الى القرن الحادى عشر ، بل أن اغلبها قـد سك محليا على يد اهالى سينكيانج بعـد أن اعتنقوا الاسلام ·

وفى عام ١٩٢٨ اكتشف البرفيسور هواهج دين بى فى مقبرة تانج فى تورفان بمقاطعة سينكيانج عملة اسلامية قـديمة ·

وقـد اطلعنا فى هـذه المقاطعة الاسلامية على عادات وتقاليـد اسلامية والحقيقة أن الأخـلاق فى الصين كلها مفخرة من مفاخر الاسلام·

الفصل السادس

أبو دلف فى ظلال البويهيين

- ١ -

تنقضى هذه المشاهد كلها ، ونرى ابن ينبع الكبير يعيش فى ظلال دولة البويهيين ، ولا ندرى كيف كان ذلك ، ولا متى كان ؟

ترك أبو دلف بخارى والسامانيين الى البويهيين ، ووزيرهم الشهير ابن العميد ، ثم وزيرهم الكبير الصاحب بن عباد ، والى عواصمهم الكبرى يتنقل بينها : اصبهان والرى ، وبغداد ، واصبح رفيع المكانة عند عضد الدولة الملك البويهى نفسه ·

- ٢ -

وتاريخ البويهيين حافد بالانتصارات الكبيرة ، فهذه الأسرة الفارسية(١) التى بسطت نفوذها على خراسان وفارس والعراق ، انتهى الأمر بزعيمها احمد بن بويه الى دخول بغداد فى الحادى عشر من جمادى الأولى عام ٣٣٤ هـ فى خلافة المستكفى بالله ، واصبح بجوار الخليفة سلطانا أو ملكا على الشعوب الاسلامية ، ولقب « معز الدولة » (٣٣٤ - ٣٥٦ هـ) ، وخلفه ابنه عز الدولة (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ) ، ثم عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٣ هـ) ، وغيرهما من ملوك البويهيين ·

واستبد البويهيون بالخلفاء استبدادا كبيرا ، فلهم الملك والنفوذ والسلطان ·

---

(١) ينسب البويهيون أنفسهم الى بهرام جور (٨ : ١٩٧ ابن الأثير) · وبهرام جور هو القيصر الساسانى بهرام الخامس (٤٢٠ - ٣٤٨ م) · وأحمد معز الدولة ، والحسن ركن الدولة (٣٢٠ - ٣٦٦ هـ) ، وعلى عماد الدولة : حكم هؤلاء الاخوة الثلاثة العالم الاسلامى باسم الخليفة العباسى · وأقام معز الدولة فى بغداد ، وركن الدولة فى الرى ، وعماد الدولة فى شيراز ·

وصار الذى فى أيدى العباسيين انمـا هـو أمر دينى اعتقادى لا ملك دنيوى كما يقول البيرونى (ت عام ٤٤٠ هـ) فى كتـابه « الآثار الباقية »(٢) ، وحتى صار الخليفة لا يأمن على نفسه وحياته من بطش البويهيين متى أرادوا ٠

خلعـوا المستكفى بالله بن المكتفى (٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ) ، وولوا مكانه المطيع لله بن المقتـدر (٣٣٤ ـ ٣٧٣ هـ) ثم خلعـوه ومات بعـد عـام ، وولوا مكانه ابنه الطائع لله (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) ، وخلعـوه وقبضوا عليـه وعـذبوه وولوا مكانه القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ) ، فقـال فى ذلك الشريف الرضى :

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه
لقـد تقارب بين العـز والهـون

ومنظر كـان بالسراء يضـحكنى
يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى(٣)

ومن أشهر وزراء البويهيين وزيران :

أولهما : أبو الفضل محمـد بن العميد (٣٠٠ ـ ٣٦٠ هـ) وكان امام عصره فى الأدب والكتابة والبلاغة ، كما كان لـه مجـده وهيمنتـه وسلطانه السياسى فى دولة البويهيين ، وكان وزيرا لركن الدولة البويهى (٣٢٠ ـ ٣٦٦ هـ : ٩٣٢ ـ ٩٧٦) وذلك من عام ٣٢٨ هـ ـ ٩٣٩ م ٠

وقـد بدأ أبو دلف يتصـل به ، والظاهر انه أقبل عليه ثم أعرض عنه ، فهجاه أبو دلف ، ورد عليـه ابن العميد ، مهـددا برسالة طويلة

---

(٢) ٢ : ١١٣ المرجـع ٠

(٣) ٢ ٠ ٨٦٧ ديوان الرضى ، ٣ : ٢٠٢ تجـارب الأمم لمسكويه ، كتـاب (الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » ٠

رواها أبو حيـــان التوحيدى فى كتـــابه « مثالب الـــوزيرين »(٤) ، وجاء فيها :

« الآن علمت ايها الشيخ انك لى مكايد ، والى جميع ما أنهـاك عنـه مخالـف ، وغلى ديدنك المعـروف ثابت ، وبفضـله لسانك مسحـــور .. » .

الى ان يقـول ابن العميد :

« تقاعست عنى بلا عـذر ، ووقفقنى بين وصـل وهجر ، فلم أدر كيف أخاطبك ؟ وعلى ماذا أعاتبـك ؟ لأنك مشـــهور بقحة ، ومذكـــور بسلاطة ، ومعتاد للبهت ، وجار على الكـذب » .

« واول ذلك أنك تدعى بنوة محمـد بن زكريا من ناحية ابنته ، وقـد شاهدت محمدا وما خلف بنتـا » .

ثم يقـول ابن العميد فى غضب ظاهر :

ان فى الموت خلاصا منـك ، ومفارقة لمثلك ، والله ما أذنب الا حسن ظنى بك ، ومباهاتى أهـل مجلسى بفضلك ، وقـولى : « أبو دلـف ؟ لا تنظروا الى هزله ، فان وراء ذلك جـدا ، وهـو المرء الذى قـد جمع الله لـه بين المنظر والمخـــبر ، وبين الدعـوى والبينة ، وبين القـــول والحجـة ، وبين الضمان والوفاء ، وبين الصـداقة والشفقة » .

« فما زلت اقـول هـذا وشـــبهه ، وأصـحابى يشيعون قـولى بمثله فى الظاهر ، ويخالفوننى بعلمهم فى الباطن ، حتى كان الفـلج لهم ساعتى هـذه ، لأنى احتجت الى غلمـــك فخييت غهـدى ، وأقبلت عليـك فأعرضت عنى ، ووهبت لك كلى ، فبخلت ببعضك على .. ولقد استفدت بمعرفتك تجنب مثلك .. » .

---

(٤) ص ٢٨٩ - ٢٩٢ المرجـع المذكـور .

ويقـول أبو حيـان التوحيدى(٥) :

قلت لأبى دلف : ما اجبته عن هـذا الكلام ؟

قال : عملت شيئا لم أجسر على اظهاره ، وخفت صولته ونكايته، وشره وغائلتـه ٠٠

وتوفى ابن العميد عام ٣٦٠ هـ وولى ابنـه أبو الفتح منصب أبيه فى عهد ركن الدولة ، ثم فى عهـد مؤيد الدولة الذى كان يؤثر تلميـذ ابن العميد الصاحب بن عباد ويقـدمه وانتهى الأمر بمقتل أبى الفتـح الوزير عام ٣٦٧ هـ ٠

أما الوزير الثانى من وزراء البويهيين الكبار : فهـو الصاحب ابن عباد (٣٢٤ ـ ٣٨٥ هـ : ٩٣٦ ـ ٩٩٥ م) الوزير البـويهى الكبير طيلة ثمانية عشر عاما (٣٦٧ ـ ٣٨٥) ٠

وصار أبو دلف قريب المنزلة من الصاحب(٦) ، يجلس فى مجالسه فى أصبهان والرى منادما ، ومادحاً ، وكان الصاحب نادرة الدهـر ، وأعجـوبة العصر(٧) ، وظـل وزيرا مدى ثمانية عشر عاما (٣٦٧ ـ ٣٨٥ هـ) ، وكانت لـه خزانة كتب فيها نحـو ربع مليون كتاب(٨) ٠

وقـد احتف بالصاحب من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضـل ، وفرسان الشعر ، من يربى عـددهم على شـعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخـذ برقاب القوافى ، وملك رق المعـانى ٠ فانه لم يجتمع بباب أحـد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد

---

(٥) ٢٩٢ مثالب الوزيرين ٠

(٦) راجع عنه : ٢٦٨/٢ ـ ٢٧٠ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ـ كتـابى الحيـاة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثـانى ـ ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقـوت ٠

(٧) ١ : ٧٥ وفيـات الأعيـان ٠

(٨) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقـوت ٠

من فحول الشعراء المذكورين ، وجمعت حضرة الصاحب بن عباد باصبهان والرى وجرجان مثل : ابى الحسن السلامى ، وأبى سعيد الرستمى ، والبديع الهمذانى ، والقاضى الجرجانى ، وابى القاسم ابن أبى العلاء ، وأبى دلف ، والصابى ، وسواهم ، ممن يطول ذكرهم كما يقول الثعالبى فى « يتيمة الدهر »(٩) .

ويذكر الثعالبى ابا دلف من شعراء الصاحب ومنادميه وجلاسه(١٠) .

ويقول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبعى ، يشعر ويتطبب ويتنجم(١١) .

وكان الأدباء يجدون فى ظل الصاحب أمنا وامانا لهم ، مما حل بالبلاد فى عهد البويهيين من فقر مدقع ، فقد صارت العراق - كما يقول المقدسى - بيت الفتن والغلاء(١٢) واحترف أكثر العلماء والأدباء صناعة الوراق ، كابى حيان التوحيدى (٣٢٠ - ٤١٤ هـ) وغيره .

واتصل أبو دلف بعضد الدولة(١٣) الملك البويهى فى بغداد ، وجلس فى مجالسه شاعرا ومنادما ، وتصور لنا القصة الآتية مكانة أبى دلف عند هذا الملك البويهى الكبير ، وقد رواها الثعالبى فى كتابه لطائف المعارف » :

---

(٩) ١٦٩/٣ اليتيمة .

(١٠) ٣ : ١٨٩ المرجع نفسه .

(١١) ٢ : ٤٠٠ المرجع .

(١٢) ١١٣ أحسن التقاسيم .

(١٣) من شعراء عضد الدولة : المتنبى ، والسلامى ، وغيرهما . ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده ابو على الفارسى الذى أهداه كتابه « الايضاح » (٣ : ٦٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه) .

جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس لعضد الدولة بشيراز مطايبة ومداعبة - ومحاضرة ، ومذاكرة .

فقال أبو على لأبى دلف :

صب الله عليك طواعين الشام ، وحمى خيبر ، وطحال البحرين ، ودماميل الجزيرة ، وسناقر دهستان(١٤) ، وضربك بالعرق المدنى(١٥) ، والنار الفارسية ، والقروح البلخية .

فقال لـه أبو دلف :

يا مسكين ، أتقرأ « تبت » على أبى لهب ، وتنقل التمر الى هجر .

بل صب الله عليك : ثعـابين مصر ، وأفاعى سجستان ، وعقـاب شـهرزور ، وجرارات(١٦) الأهـواز .

وصب على برود اليمـن ، وقصب مصر ، وديابيج الروم ، وخزوز السوس ، وحرير الصين ، واكسية فارس ، وحلل أصبهان ، وعمـائم الأبلة ، وسقلاطون(١٧) بغـداد ، وسنجاب(١٨) خـر خـير(١٩) ، وسمور(٢٠) بلغار ، وثعالب الخـزر(٢١) ، وفنـك(٢٢) كاشـغر ، وفاقم(٢٣) التعز غـز ، وحواصل(٢٤) هرارة ، وتكك(٢٥) ، وجوارب قـزوين .

---

(١٤) السنقر والسنقور : طائر من الجوارح أعظم من الصقر وأجمل منه . ودهستان : بلـد مشهور قرب خوارزم وجرجان .

(١٥) مرض يصيب الانسان ، ينسب الى المدينة ، لكثرته فيها .

(١٦) نوع من الحشرات .

(١٦) ثياب من الحرير موشاة بالذهب .

(١٨) حيـوان تصنع منـه الفراء .

(١٩) موضع ينسب اليـه جنس من الترك .

(٢٠) دابة يتخـذ من جلدها فراء ثمينة .

(٢١) قبائل على سواحل بحر الخزر (قزوين) .

(٢٢) ثعلب صـغير .

(٢٣) حيـوان فروه من أفخم الفراء .

(٢٤) الجلود تلبس للتدفئـة .

(٢٥) رباط السراويل .

وأفرشنى : بسط أرمينية ، وزلالى قاليقلا ، ومطارح(٢٦) ميسان ، وحصر بغـداد .

واخـدمنى : خصان الروم ، وغلمان الترك ، وسرارى بخارى ، ووصـائف سمرقنـد .

وحملنى على : عتاق البادية ، ونجائب العجـان ، وبرازين طخارستان ، وحمير مصر ، وبغـال برذعـة .

ورزقنى : تفـاح الشام ، ورطب العراق ، وموز اليمن ، وجـوز الهند ، وباقـلاء الكوفة ، وسـكر الأهـواز ، وعسل أصبهان وتمـر كرمان ، ودبس أرجان ، وتين حلوان ، وعنب بغـداد ، وعنـاب جرجان، واجاص بست ، ورمان الرى وكمثرى نهـاوند ، وسفرجل نيسابور ، ودشمش طوس ، وملبن مرو ، وبطيخ خوارزم .

وأشمنى : مسك تبت وعـود الهند ، وعنبر الشحر ، وكافور فنصـور(٢٧) وأترج طبرستان ، ونارنج البصرة ، ونرجس جرجان ، ونيلوفر السيروان(٢٨) وورد جور ، منثور بغـداد ، وزعفران قم(٢٩) .

فاعجب عضـد الدولة بكلام أبى دلف ، ووفـور حظـه من طوافه بالشرق والغرب ، ووقـوفه على خصائص البلدان فى كل مكان من العالم الاسلامى .. ولم يملك الا أن صاح بملء فيـه بهـذه العبارة العجيبـة التى لم يقلهـا ملك فى أحـد من الأدباء أو الرعية ، قال عضـد الدولة فى تعجب ظاهر :

« لله درك يا أبا دلـف ..(٣٠) .

---

(٢٦) بســـط .

(٢٧) بلـد قرب الصـين .

(٢٨) بلـد بالجبـل .

(٢٩) ٢٣٤ ـ ٢٣٩ لطائف المعارف للثعالبى ـ بتحقيق الأبيارى والصيرفى.

(٣٠) ٢٣٩ المرجـع السـابق .

ملك يا أبا دلف ينادم الملوك » •

وأمر لــه بخلعــة وصــلة حسنة •

وتدل هــذه القصــة على ما يلى :

١ - كثرة طواف أبى دلف بالعــالم الاسلامى ، ووقـــوفه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلــد من بلــدانه •

٢ - حضور بديهتــه ، ووفرة أدبه •

٣ - ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة •

٤ - وفرة حظه بين منادمة الملوك وحسن مجالستهم •

وتوفى عضــــد الدولة عام ٣٧٣ هـ ثم توفى بعــده بزمن ليس بطويل وزيره الصاحب ، وذلك عام ٣٨٥ هـ •

وفـاة أبى دلـف

تقاذفت الأيام بأبى دلف ، وشهد نهاية صديقيه الصاحب وعضد الدولة ، ومرت به السنوات ، من فقر لغنى ، ومن غنى لفقر ، ولم يجد كريمـا كالملك السامانى ولا كالصاحب الوزير ، ولا كعضد الدولة البـويهى ٠

ورأى الحيـاة من حـوله لم تعـد تحتفى بالأدب ، ولا تعير الأدباء جانبـا من رعايتهـا ٠

وشاهـد نتائج رحلاته وطـوافه بالبلاد ، وتدويخـه للأرجاء ، تصبح وكأنها ليست شـيئا مذكورا ٠

وتذكر زملاءه الشعراء : المتنبى ، السلامى ، القاضى الجرجانى ، وأبا سعيد الرستمى ، والبستى ٠

وأقرانه من الأدباء والكتاب : الخوارزمى البـديع الهمذانى ، الصابى ، الصاحب ، ابن العميد ٠

وقـد طوت كل هـؤلاء الأيام ، ومضت بهم الحيـاة الى مصيرها المحتـوم ٠

فأسلم نفسه للمقادير ، الى أن لقـى ربه نحـو عـام ٣٩١ هـ ـ ١٠٠١ م كما أرجح ، أو عام ٣٩٠ هـ كما ذكر الزركلى فى « الأعلام » ، والعلامة حمـد الجاسر فى كتابه « بلاد ينبع » نقـلا عن « الأعلام » ٠

الباب الثالث

رحلات أبى دلف

الفصل الأول

الرحالة المسلمون قبل أبى دلف

اتسع نطاق الرحلات عند المسلمين اتساعا كبيرا ، بتأثير الحج والتجارة ، والرغبة فى نشر الاسلام ، ولطلب العلم ولقاء العلماء ، ولاقتناء الكنوز العلمية والاقتصادية ، وللقيام ببعض المهام السياسية ، حيث كان ملوك وأمراء المسلمين يوفدون الرسل والسفراء الى مختلف أنحاء العالم .

ومنذ خلافة أبى بكر الصديق نجد عبادة بن الصامت ، وهشام ابن العاص ، ونعيم بن عبد الله ، يذهبون الى القسطنطينية فى رسالة من الخليفة أبى بكر الى ملك الروم يدعوه فيها الى الاسلام ، ويقول عبادة بن الصامت : وأقبلنا حتى أنخنا تحت غرفة هرقل ، فقلنا : لا اله الا الله والله أكبر ، والله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى كأنها عذق سعفة ضربها الريح .

ولما لقوا قيصر سألهم : ما أعظم كلامكم ؟ قلنا : لا اله الا الله والله أكبر ، فالله يعلم أنه انتفض سقفه حتى ظن هو وأصحابه أنه سيسقط عليهم .. ثم دعاهم قيصر ليلا وعرض عليهم صندوقا فيه صور الأنبياء من آدم الى محمد عليه السلام(١) .

واستمرت الرحلات السياسية خلال العصور ، فنجد عمارة ابن حمزة يحمل رسالة من المنصور الى ملك الروم(٢) .

ومن الرحلات المشهورة رحلة سلام الترجمان الى سور الصين

---

(١) راجع ص ١٤١ - ١٤٣ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه .

(٢) راجع ١٣٧ و ١٣٨ المرجع السابق .

الشمالى بأمر الخليفة العباسى الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ : ٨٤٢ - ٨٤٧ م) ٠

ثم رحلة سليمان السيرافى ، وقد زار الهند والصين مرارا ، وكتب وصف رحلته عام ٢٣٧ هـ - ٨٥١ م ، ولهذا الوصف ذيل ألفه فى القرن الرابع الهجرى مؤلف رحالة من سيراف اسمه أبو زيد حسن ، وقد نشر هذه الرحلة المستشرق رينو عام ١٨٤٥ م ، وسليمان السيرافى أول رحالة مسلم يشير الى الشاى الذى يشربه الصينيون كثيرا ، ويسمونه « ساج » ٠

وقد قام بعده ابن وهب القرشى برحلة الى الصين نحو عام ٢٥٦ هـ/٨٧٠ م ٠

وفى كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة أن بعض التجار المسلمين وصلوا الى كوريا ٠

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى نجد أحمد بن فضلان يقوم عام ٣٠٩ هـ/٩٢١ م برحلة الى بلاد البلغار ، وهم الشعب الذى أسس فى بداية العصور الوسطى دولتين : أقدمهما فى حوض الفولجا الوسطى (وهو نهر اتل كما تسميه المصادر الاسلامية) ، أما الأخرى ففى حوض نهر الطونة ٠

وقد زار ابن فضلان الأولى(٣) على نهر الغولبا ، ويذكر ابن رستة فى كتابه « الأعلاق النفيسة » الذى ألفه نحو عام ٢٩١ هـ/٩٠٣ م أن أكثر هؤلاء البلغار كانوا ينتحلون الاسلام ، بينما تذكر رحلة ابن فضلان أنهم لم يدخلوا فى الاسلام الا قبيل الرحلة بأعوام ٠

---

(٣) تطلق كلمة بلغار على الشعب ، وعلى البلاد ، وعلى عاصمتها التى كانت تقع شرقى نهر القولجا ولا يزال بعض آثارها قائمة على مقربة من مدينة قازان الحالية على نحو ستة كيلو مترات من شاطىء القولجا الأيسر ٠

وقد ذهب ابن فضلان مع وفد بعث به الخليفة المقتدر بالله العباسى عام ٣٠٩ هـ الى ملك البلغار لتعليم شعبه شعائر الاسلام ٠

وقد خرج الوفد من بغداد فى الحادى عشر من صفر عام ٣٠٩ هـ/الحادى والعشرين من يونيو عام ٩٢١ م ، وساروا الى بخارى فخوارزم فبلاد البلغار ، فوصلوها فى الثانى عشر من المحرم عام ٣١٠ هـ/الثانى عشر من مايو عام ٩٢٢ م ٠

وقد أدت هذه البعثة مهمتها ، ولما عادوا الى بغداد ، كتب ابن فضلان رحلته التى تعرف برحلة ابن فضلان ، ويبدو أن ما كتبه هو الذى قدمه الى الخليفة العباسى المقتدر بالله ٠

وقد نقل ياقوت الحموى جزءا من رحلته فى مادة : اتل ، وبلغار ، وخرز ، وخوارزم ٠

ونشرت الرحلة فى روسيا عام ١٨٢٣ ، وأفاد منها بروتولد الروسى فى الدراسة التى كتبها عن البلغار فى دائرة المعارف الاسلامية ، ثم عبد الوهاب عزام فى دراستين له غن البلغار المسلمين ٠

وفى عام ١٩٢٤ عثر العالم التركى أحمد زكى الوليدى فى مشهد على مخطوطة نفيسة احتوت على أربعة كتب ، منها رحلة أبى دلف ، ورحلة ابن فضلان ٠

وهذه الرحلة تعد أقدم وصف كتب لجزء من بلاد روسيا ، ولا يعرف رحالة سبق ابن فضلان اليها ٠ ويصف فى رحلته حفل دفن زعيم روسى ، وقد رسم أحد الرسامين الروس منذ مائة عام هذا المنظر اعتمادا على وصف ابن فضلان ، وزين بهذا الرسم احد جدارن المتحف التاريخى فى موسكو ٠

وممن زار بلاد البلغار بعد ابن فضلان : أبو حامد الغرناطى

الأندلسى صاحب كتاب « تحفة الألباب ونخبة الاعجاب » عام ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م ٠

وقد تحدث المسعودى (ت ٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م) فى الجزء الأول من كتابه « مروج الذهب » عن البلغار ٠٠ وقد سقطت مملكة البلغار نهائيا عام ١٢٣٦ م ، وخرب الروس بلادهم عام ١٣٩٩ م كما تذكر دائرة المعارف الاسلامية (٩٩/٤) ٠

ومن نتائج هذه الرحلات التى قام بها الرحالة المسلمون على مختلف الأجيال معرفتهم من الصينيين للابرة المغناطيسية ، وقد أخذها الغرب عن المسلمين فى الحرب الصليبية الثانية ٠

ومن نتائجها تدوينهم لكثير من المعارف الغنية فى تاريخ هذه البلاد وجغرافيتها القديمة التى لم يكتب عنها أحد قبل الرحالة المسلمين ، ولا كتب عنها بعدهم أحد من الأوربيين الا بعد أجيال طوال(٤) ٠

---

(٤) راجع : تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشوفسكى ، الرحالة العرب لنقولا ايادة ، والرحالة المسلمون لزكى محمد حسن ، وأدب الرحلات لشوقى ضيف من سلسلات دار المعارف المصرية عن فنون الأدب العربى ، تاريخ التمدن الاسلامى لزيدان ، وتاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ، وحديث السندباد القديم لحسين فوزى ، والجغرافيا والرحلات عند العرب لنقولا زيادة ، ودائرة المعارف الاسلامية فى مادة رحلات ، رحلة ابن فضلان بتحقيق الدكتور سامى الدهان (المتوفى فى اغسطس ١٩٧١) وهى من مطبوعات المجمع العلمى العربي بدمشق ٠

الفصـل الثـانى

جهـود أبى دلـف فى ميدان الرحـلات

١ - يحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام ٠

ويعـد من أشهر الرحالة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى ، وقد بهر العالم بما قام به من رحلات ، وما كتبه عن مشاهداته وأوصافه للبلاد التى رحـل اليها وطاف بها ٠٠ وقـد حفظ لنا ابن النـديم فى كتابه « الفهرست » ، وياقـوت فى « عجـائب المخـلوقات » ، و « آثـار البلاد » مقتطفات كبيرة من وصف أبى دلف للبلاد التى جابها ، والأسفار التى قام بهـا رحالتنا العالمى المسلم أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، فى أنحاء كثيرة من العالم ، المعروف آنذاك : الهند والصين ، وآسيا الوسطى ، وهى الأسفار والرحلات التى طار ذكرها ، وشهر أمرها بين النـاس فى عصر أبى دلف وبعـد عصره حتى اليوم ، والتى نال أبو دلف بها فى حياته مجـدا كبيرا ، قاده الى قصور الملوك والوزراء والأمراء ، ونال بها بعـد وفاته مجـدا تليدا خالدا فيما كتبـه عنـه أعـلام المستشرقين من كتابات ، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات ، وما سجل عنه فى دوائر المعـــارف من عجائب الكشـوف الجغرافيـــة ٠

يصفه ابن النـديم(١) بالجـوالة ، ويذكر القزوينى أنه كان جوالة مشهورا جاب البلاد وشاهد عجائبها(٢) ، وأنه كان سياحا زار البلاد ، وأخبر بعجائبهـا(٣) ٠

---

(١) ٣٤٦/١ الفهرســت ٠

(٢) ٢٦٧/٢ آثار البــلاد ٠

(٣) ٩٧ عجـائب المخـلوقات ٠

ويذكر كذلك القزوينى بلاد بهى وعجائبها وهى من بلاد الترك ، ثم يقول : أخبر بهذه كلها ، أعنى بلاد الترك وقبائلها ، مسعر ، فانه كان سياحة رآها كلهـا(٤) .

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد له الباحثون من المستشرقين بالدقة والصدق والواقع ، وان كان ياقوت الحموى يقول عنه : انه كان يحكى عنه الكذب(٥) ، ويعنى بذلك أن رحلاته كان بعضها من نسج الخيال ، وقد تكفل لنا بالرد على هذا الاتهام كراتشوفسكى وسواه من المستشرقين ، وسيأتى كلامهم .

ولقد كان أبو دلف أحد الباحثين المعدودين الذين مكنتهم وحدة الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى من القيام برحلات خطيرة ، على جانب كبير من الأهمية .

فمع أن العالم الاسلامى فى عصر أبى دلف ، وهو القرن الرابع الهجرى ، كان مقسما الى دول كثيرة ، استقلت عن خلافة بغداد ، وتركت التبعية السياسية للخلفاء العباسيين ، الا أنه كان موحد العقيدة واللغة والثقافة والحضارة ، خاضعا للتأثير الاسلامى وحده ، ومن ثم كان فى امكان أبى دلف أن يجوب البلاد ، وأن يسير فى الممالك الاسلامية ، للبحث والكشف والتنقيب ، لا يحده حد ، ولا يغله قيد ، ولا يحول بينه وبين نهمه العلمى حائل .

٢ - وقد ألف أبو دلف « الرسالة الأولى » وتحتوى على رحلته عبر الصين والهند التى قام بها عام ٣٣١ هـ ٩٤٢ م . وقد قام المستشرق الألمانى رور صوير عام ١٩٣٩ بتحقيقها ، ويبدو أن أبا دلف جمع مادتها من الذاكرة بعد قيامه برحلته هذه بمدة تطول أو تقصر ، وتتضمن الرسالة الى جانب صدقها الكثير من المعلومات التقريبية والخيالية عن هذه البلاد الواسعة ، التى ساح فيها .

---

(٤) ٥٨٩ المرجع السابق .

(٥) ٣٢٦/٥ معجم البلدان لياقوت .

وفى مقـدمة هـذه الرسالة يقول أبو دلف(٦) :

« أنى لما رأيتكما يا سيدى ، أطال الله بقاءكما ، لهجين بالتصنيف ، مولعين بالتأليف ، أحببت أن لا أخلى دستوركما ، وقانون حكمتكما ، من فائدة وقعت الى مشاهدتها ، وأعجوبة رمت بى الأيام اليها ، ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ، ويصبو الى استيفاء قراءته القلب ، فرأيت معاونتكما ، لما وشج بيننا من الاخاء ، وتوكد من المودة والصفاء » .

والظاهر - كما أرجح - أنه يخاطب أحـد المـلوك السامانيين والصاحب بن عباد ، وأنه حين كتب هـذه الرسالة أهـدى منها نسخة الى هـذا ، وأخرى الى ذاك وهـذا يدل على أنه كتبها بعـد عهـد طويل من قيامه بالرحلة .

وقـد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢ ، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها الى الألمـانية ، وشاركه فى ذلك المستشرق فراين فى « مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية » التى نشرها عن الشرق الأقصى .

وألقى المستشرق الروسى غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثا عنها فى المؤتمر الدولى الثالث عشر للمستشرقين المنعقد فى بطرسبرج .

ودرسها رزن ، وماركفارت (١٩٠٣) ، ووضح خط رحـلة أبى دلف الى الصين .

وكذلك فعـل بارتولد ، ومينورسكى (١٩٦٧) الذى قال عنها : ان فى الرحلة سلسلة من الوقائع بعضها حقيقى ، وبعضها من نسـج الخيال ، وفى وصف أبى دلف لرحلاته - كما يقول مينورسكى - خلط وتعقيد شـديدان ، وان كان يعـد خلاصة للمعـارف الجغرافية آنذاك

---

(٦) ٨/٥ ٤٠ و ٤٠٩ معجم البلـدان .

عن الصين والهند · ويشكك أخيرا هـذا المستشرق فى حدوث رحـلات أبى دلـف ·

ويرد عليه كراتشوفسكى فى كتـــابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »(٧) مؤكدا أن رحلة أبى دلف الى الصين واقعة حقيقية لا شـك فيها ، ويؤكد حـدوثها روايات ابن النـديم فى كتابه « الفهرست » عن أبى دلف(٨) · بل ان الرجـل لم يترك أدنى شـك لدى خبير بالموضوع مثل فيران (١٩١٣) ·

ويؤكد روير صوير (١٩٣٩) أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال ، اذ أن بعض التفاصيل المتعلقة بهـا وجـدت دلائل على صحتها فى سفارات متأخرة ، مثل سـفارة شاهرخ ، كما أكـد الباحثون دقـة ملاحظات أبى دلف فى محيط الظـواهر الطبيعية والتاريخية ، وفى وصـفه لمشـاهد عـامة ·

وفى هـذه الرحلة يذكر أبو دلف الأوانى الصينية وأنها كانت مفضلة فى الأسـواق ، وأن الخزف الصينى كان يقـلد فى بعض البلدان ، ولا سيما فى مليار وايران ·

٣ ـ وفيما بين عام ٣٣١ ـ ٣٤١ هـ : ٩٤٢ ـ ٩٥٢ م ، زار أبو دلف بتشجيع من الصاحب الوزير على ما أظن وكما أشار الى ذلك الثعالبى فى « اليتيمة » ، أماكن مختلفة فى ايران وآسـيا الوسطى فى حمـاية الـوالى على سيستان من قبـل أبى محمـد بن أحمـد (٤٣١ ـ ٣٥٢ : ٩٤٢ ـ ٩٦٣ م) وألف أبو دلف فى وصف هـذه الرحلة ومشاهده فيها عبر أرمينية وأذربيجان وايران رسالة سماها « الرسـالة الثانية » ، ويقول فى مقـدمتها على طريقته نفسها فى مقـدمة الرسالة الأولى :

« جردت لكما ، يا من أنا عبد كما ، أدام الله لكما العـز والتأييد ،

---

(٧) ص ١٨٩ من الكتـاب ·

(٨) ٣٤٦ و ٣٤٧ الفهرست ٣٥٠ و ٣٥١ الفهرست أيضا ·

والقدرة والتمكين ، جملة من سفرى من بخارى الى الصين ، ورجوعى منها على الهند ، وذكرت بعض أغاجيب ما دخلته من بلدانها ، وسلكته من قبائلها ، ورأيت الآن تجريد رسالة ثانية ، تجمع عامة ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عاينته ، لينتفع به المعتبرون ، ويتدرب به أولو العزة والطمأنينة ، ويثقف به رأى من عجز عن سياحة الأرض »(٩) ٠

واللذان يوجه هنا أبو دلف اليهما هذه الرسالة هما اللذان وجه اليهما الرسالة الأولى ، كما يبدو من هذه المقدمة الموجزة الصغيرة ٠

ولهذه الرسالة الثانية فى وصف رحلته فى أواسط آسيا أهمية كبيرة ، كما سنذكر بعد قليل ٠

وتبدأ وقائع هذه الرحلة التى تسجلها الرسالة الثانية من مدينة « الشمز » فى جنوبى أذربيجان ، وتمتد لتشمل أماكن كثيرة فى خراسان وايران والقوقاز وأرمينية ، ٠ ومن هنا كانت الرسالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام ، والتاريخ الجغرافى والجيولوجى والأثرى لهذه البلاد ، وهى الى جانب هذا تحتوى على كثير من الأشياء الطريفة ، والمشاهدات العجيبة ، والنوادر الغريبة ، وبعضها مما يحير العقول(١٠) ٠

وتتميز هذه الرسالة بتركيز شديد ، ودقة متناهية ، وموضوعية غريبة ، كما تتميز بمادتها العلمية القيمة التى تضعها فى عداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافى لآسيا الوسطى ٠ وتحتوى على معلومات جليلة متعلقة بالمصادر النفطية فى باكو ، وبالمعادن المفيدة

---

(٩) ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة نشر عالم الكتب ـ مطبعة مخيمر وقد وردت كلمة ثانية ، فى الرسالة (ص ٢٩) محرفة الى كلمة « شافية » ، وهو خطأ ٠

(١٠) ص ٣ مقدمة الرسالة الثانية ٠

فى أرمينية ، وأبو دلف أحد الرحالة الأوائل الذين تحدثوا عن استخراج النفط فى باكو ، وما أروع ما كتبه عن معدنيات وطواحين تفليس(١١) ، ولا يستغنى عن دراستها مؤرخ أو جغرافى أو جيولوجى ، وفيها يذكر أبو دلف أكثر من أربعين موضعا يوجد فيها المعادن ، وأماكن أخرى فيها آثار للفرس أو للسامانيين ٠

ولقد حقق مينورسكى هذه الرسالة ، وطبعت بمصر عام ١٩٥٠ م فى ٣١ صفحة النص العربى + ١٣٦ صفحة الترجمة الانجليزية والدراسة ٠

ثم طبعت فى موسكو بتحقيق خالدوف وبلغاركوف عام ١٩٦٦ م ٠

وطبع تحقيقهما فى القاهرة بترجمة محمد منير موسى عام ١٩٦٦م٠

وفى عام ١٩٢٤ عثر فى مدينة مشهد الايرانية على مخطوطة تشتمل على أربع رسائل :

١ _ رسالة أبى دلف ٠
٢ _ رسالة ابن فضلان ٠
٣ _ رسالة فى أخبار البلدان لابن الفقيه ٠
٤ _ رسالة أخرى ٠

وأصبح لهذه المخطوطة أهمية كبيرة فى تراث أبى دلف ، وفى تاريخ البحث العلمى الجغرافى القديم ٠

ورسالة أبى دلف فى مخطوطة مشهد تشتمل على رسالتيه الأولى والثانية وقد ذكرنا على أنهما كتاب واحد ٠

ويبدو أن هذا الكتاب كان قديما يسمى عجائب البلدان كما نقلنا عن القزوينى وياقوت ، وذكرها بهذا الاسم كذلك بروكلمان ٠

---

(١١) ص ٢٢ مقدمة الرسالة الثانية ٠

٤ ـ وأبو دلف فى رحلاته يعنى عناية شديدة بذكر أماكن المعادن والآثار ، وطالما يقف أمام الأشياء موقف العالم المدقق الحكيم المجرب الذى يحاول فهم الأشياء والوصول الى دخائلها .

ومن أهمية البحث الجغرافى الذى قام به أبو دلف أنه عرض لمدينة الشيز ، وهى بين المراغة وزنجان وشهرزور وتوجد الآن فى وادى ساركزتز فى الاتحاد السوفيتى .. ومن وصف أبى دلف لهذه المدينة : أمكن للعلماء الروس تحديدها واستخراج آثار تخت سليمان من تحت طبقاتها الأرضية . ومن مثل تحقيقاته العلمية ما ذكره فى صعوده الى قمة جبل دبناوند فى فارس ودخوله كهفا فى هذا الجبل ورصده لظاهرة وجود نار مشتعلة فيه(١٢) .

ويذكر أبو دلف أنه سار فى مادرة خوارزم ، ورأى بها آثارا كثيرة لجماعة من ملوك العرب والعجم ، ويتحدث ، عن انخساف بعض قراها تحت الأرض بنحو مائة قامة

ويشكك بعض الباحثين فى وصول أبى دلف الى خوارزم بدعوى أن معلوماته عن هذه البلاد عامة ضحلة ، ولكن ذلك لا يقف حجة لهذا الشك .

وبعد فقد كان أبو دلف ابن ينبع ، من أعظم الرحالين الجغرافيين المسلمين ، الذيد ظهروا فى القرن الرابع الهجرى . وقد نالت رسالتاه أعظم اهتمام فى عالم الاستشراق ، وأولاه المستشرقون كثيرا من العناية والدراسة والبحث .

وعمل أبى دلف فى ميدان الرحلة متعدد : فهو يظهر لنا فى صورة الرحالة الوصاف للجغرافية الاقليمية القديمة .

كما يظهر فى صورة الجغرافى المتمكن ، والأثرى المنقب ،

---

(١٢) الرسالة الثانية ص ٨٧ .

والجيولوجى الدقيق العالم بطبقات الأرض وصخورها مما يرفع من منزلته بين العلماء .

ويظهر لنا كذلك فى صورة الطبيب الذى يعلم أماكن المصحات الطبيعية التى تلائم طبيعة المرضى والتى تساعدهم على الشفاء .

ويصدق عليه ما قاله المسعودى عن نفسه : « قطعنا بلاد السند والزنج ، والصين والرانج ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بأوسط أرمينية وأذربيجان »(١٣) .

وقد كتب الأستاذ يحيى ساعاتى مقالا فى مجلة المنهل السعودية آسيا الوسطى جاء فيه ما يلى :

للعرب فى آسية الوسطى تاريخ طويل ، يبدأ بسنة ٤٦ هجرية عندما وصل الى مشارف تلك المنطقة الربيع بن الحارث ، ثم كانت حملة عبيد الله بن زياد سنة ٥٠ للهجرة الذى افتتح بعض مدنها ومن بينها مدينة بيكند ، جاء بعد ذلك سعيد بن عثمان بن عفان على رأس حملة توسعت فى فتوحاتها ، وأخيرا كانت حملة قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٨٦ هجرية التى توغلت فى المنطقة حتى بلغت حدود الصين ، ونزل الجند العرب فى مدن آسية الوسطى مثل بخارى وسمرقند وفرغانة . وكان للعرب فى مدينة بخارى أحياء خاصة بهم « فمن حيث تدخل من باب العطارين الى باب نون لربيعة ومضر ، والباقى لأهل اليمن .. فاذا عبرت باب بنى سعد فهناك باب بنى أسد »(١٤) . ومع الزمن توالت هجرات العرب الى آسية الوسطى كما أنها كانت ملجأ للفارين . ولذوى المطامع السياسية منهم .. وقد اندمج معظم أولئك العرب فى أهل البلاد الأصليين ولكنهم ظلوا يحتفظون بأنسابهم ، وظل أهالى تلك المناطق يكنون لهم احتراما وتقديرا . وكان العرب الذين ينتسبون الى بعض الصحابة ، وخاصة الى أبى بكر وعمر وعلى من غير فاطمة

---

(١٣) مقدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) .

(١٤) النرشخى ٨٠ و ٨٢ .

يطلق عليهم لقب « خواجـــه »(١٥) اما الذين ينتسبون الى الحسين بن على فكان يطلق عليهم « خواجكان جويبارى »(١٦) أى الاشراف ٠

وقــد حفــظ لنـــا التـــاريخ أســماء بعض مشـــاهير عرب آســية الوسطى ، والذين قامــوا بدور بارز فى أحـداث المنطقـــة ٠٠ منهم « الخــواجة أحمد بن ابراهيم اليسوى » المتوفى سنة ٥٦٢ هجـــرية ، وهـــو من أحفاد محمد ابن على بن ابى طالب(١٧) ويعـد من رواد الأدب التركى ومن أشهر المتصـوفة الأتراك ، وهـــو من الذين نشروا الاســلام بين بدو الأتراك فى سهوب تركستان ، ويعـد ديوان « حكمت المنسوب اليه من أكثر الكتب تداولا بين أبناء المنطقة وقـد ظـل البدو فى سهوب آسيا الوسطى يعظمون « اليسون » ومثلهم الأزبك والقرغيز(١٨) ٠

ومنهم أحمد بن العباس بن الحسن بن عياض ، وهـــو من نســـل ســعد بن عبـادة الأنصارى الخزرجى ٠ ويعــد من كبار فقهـاء الحنفية، وكان يبطن سمرقند ، وقــد استشهد فى معركة مــع كفـــار الترك فى شمال تركستان(١٩) ٠

ومنهم ايضا ناصر الدين عبيد الله بن محمود بن شـــهاب الدين الشاشى السمرقندى المعروف بـ « خواجــه أحرار » وهـــو أحــد رؤساء الطريقة النقشبندية ، وقـام بدور كبير فى الحياة السياسية على عمـد التيموريين ، وهـــو من احفاد عمر بن الخطاب(٢٠) ٠

وقــد اندمج أبناء الذين ســبق ذكـــرهم وأمثالهم من العرب فى الأتراك أو الفرس وهم يعــد هناك ما يربطهم بالعرب غير وثائق أنسابهم ٠

---

(١٥) دائرة المعـارف الاسلامية ٤٦٨/٨ ٠
(١٦) هامش تاريخ بخارى للنرشـخى ٠
(١٧) لســـترنج ٥٢٩ ٠
(١٨) فامبرى ، ٢٩٨ ٠
(١٩) اللكنـــوى ، ١٨ ٠
(٢٠) المصـدر السـابق ، ١٢٠ ٠

وفى العصر الحديث كانت مفاجأة لكثير من الباحثين عندما توصل بعض المستشرقين الى وجود بقايا من العرب يقيمون حول بخارى وفرغانة ، وقشقاريا يكلمون بلهجات عربية تمت بصلة قربى الى لهجة العراق ، وشبه الجزيرة العربية ، وقد قدر « أرمنيوس فاجدى » عددهم بـ ٦٠ ألف عربى(٢١) وفى الاحصائيات السوفياتية الرسمية لعام ١٩٢٦ كان عددهم ٢٨٫٩٨٧ ، وفى احصائيات عام ١٩٣٩ كان عددهم ٢١٫٧٩٣(٢٢) ، وفى الاحصاء الرسمى لسنة ١٩٥٩ الميلادية انخفض عددهم الى ٩٠٠ (٢٣) ، وجعهم أحمد طعلت ٢٠ ألف عربى يعيشون فى أزبكستان(٢٤) .

وقد اختلف الباحثون فى تحديد التاريخ الذى جاء فيه هؤلاء العرب الى آسية الوسطى فذهب بعضهم الى أنهم جاءوا مع تيمور لنك ، وقال آخرون : أنهم من بقايا الفاتحين العرب الذين جاءوا مع قتيبة ابن مسلم الباهلى . ويذكر نجدة صفوة : « ان المعلومات التى استقيت نتيجة التحقيقات مع سكان المنطقة تحمل على الظن بأن القبائل العربية الموجودة فى آسية الوسطى قد انتقلت اليها من أفغانستان فى موجات متعددة قبل فترة تتراوح بين مائتين وثلاثمائة سنة(٢٥)

وقد اقام العرب فى بداية الأمر حول بخارى ثم تفرقوا منها فنزلوا حول سمرقند ، وفرغانة وقاشاوريا ، وهم يقطنون اليوم فى قرى منها « عرب ، وعربخانة ، وغربهيار ، وغرب قشلاق ، وعرب مزار »(٢٦) .

ولعرب آسية الوسطى لهجة عربية خاصة بهم تختلف عن اللجهات العربية فى تركيب الجمل ، وفى دخول كلمات أعجمية كثيرة فيها ، من

---

(٢١) صفوة ، العرب فى الاتحاد السوفييتى ، العربى ، ١٢٤ .

(٢٢) الفكر العربى ع ٨ .

(٢٣) بيهم ، العرب فى آسيا الوسطى ، مجلة المعرفة ، ٥٥ .

(٢٤) المسلمون فى روسيا ، ٨١ .

(٢٥) العرب فى الاتحاد السوفيتى ، العربى ، ١٢٤ .

(٢٦) المصدر السابق .

نماذجها : « كان ما كان ، قد حكيما كان ۰ وقد ولد كان عنده(٢٧) ۰

ويذكر الباحثون ان لهجة عرب بخارى تختلف كلية عن لهجة قاشقاوريا بحيث لا يستطيع العربى الذى يقيم حول بخارى التخاطب مع العربى الذى يقيم حول قاشقاوريا والمؤسف فى الأمر أن هذه اللهجات دونت بالحروف اللاتينية ۰۰ وذلك مما يباعد بينها وبين اللهجات العربية ، وبذلك تصبح لغة مستقلة تنتمى بأصلها الى العربية مثلها فى ذلك مثل اللغة او-الطية المتفرعة عن العربية ۰

* * *

وقد اهتم المستشرقون بهؤلاء العرب ويظهر هذا الاهتمام فى الدراسات العديدة التى وضعوها والتى منها :

- العرب فى الاتحاد السوفياتى لتسرتلى ۰

- اللهجة العربية فى الشرق السوفيتى ليوشمانوف ۰

- الخطوط الرئيسية لتطور الأدب العربى فى آسية الوسطى لبيليسايف ۰

- تاريخ عرب آسية الوسطى لفولين(٢٨) ۰

- لهجات العرب فى آسية الوسطى لفينيكوف ۰

- العرب فى آسية الوسطى لفينيكوف ۰

- عرب آسية الوسطى لفينيكوف ۰

- المرأة وحفظ التقاليد الثقافية عند عرب آسية الوسطى لفينيكوف ۰

---

(٢٧) الغول ، العربى ، ٦ ۰

(٢٨) العرب فى الاتحاد السوفيتى ، العربى ، ١٢٤ ۰

نماذجها : « كان ما كان ، قد حكيما كان ٠ وقد ولد كان عنده(٢٧) ٠

ويذكر الباحثون ان لهجة عرب بخارى تختلف كلية عن لهجة قاشقاوريا بحيث لا يستطيع العربى الذى يقيم حول بخارى التخاطب مع العربى الذى يقيم حول قاشقاوريا والمؤسف فى الأمر أن هذه اللهجات دونت بالحروف اللاتينية ٠٠ وذلك مما يباعد بينها وبين اللهجات العربية ، وبذلك تصبح لغة مستقلة تنتمى باصلها الى العربية مثلها فى ذلك مثل اللغة او-الطية المتفرعة عن العربية ٠

* * *

وقد اهتم المستشرقون بهؤلاء العرب ويظهر هذا الاهتمام فى الدراسات العديدة التى وضعوها والتى منها :

- العرب فى الاتحاد السوفياتى لتسرتلى ٠
- اللهجة العربية فى الشرق السوفيتى ليوشمانوف ٠
- الخطوط الرئيسية لتطور الأدب العربى فى آسية الوسطى لبيليايف ٠
- تاريخ عرب آسية الوسطى لفولين(٢٨) ٠
- لهجات العرب فى آسية الوسطى لفينيكوف ٠
- العرب فى آسية الوسطى لفينيكوف ٠
- عرب آسية الوسطى لفينيكوف ٠
- المرأة وحفظ التقاليد الثقافية عند عرب آسية الوسطى لفينيكوف ٠

---

(٢٧) الغول ، العربى ، ٦ ٠

(٢٨) العرب فى الاتحاد السوفيتى ، العربى ، ١٢٤ ٠

ـ تقاليد عرب بخـارى لفينيكوف ٠

ـ نماذج من تقاليد عرب بخـارى لفينيكوف ٠

ـ نقليات عرب آسـية الوسطى لفينيكوف(٢٩) ٠

ـ الثقافة العربية فى آسـية الوسطى لساله

ـ مواد لدراسة اللهجات العربية فى آسية الوسطى لتسرتلى ٠

ـ وصف لغـة عرب آسـية الوسطى لتسرتلى ٠

ـ اللهجات العربية وقواعـدها فى أواسط آسـية مع امثلة عليها لتسرتلى ، وهـو يتكون من اربعة مجلـدات ٠

الأول : نصوص فى لغـة عرب بخارى وترجمتها ٠

الثانى : نصوص فى لغـة كشغدار وترجمتها ٠

الثالث : قامـوس للمجلـدين ٠

الرابع : البحث فى لغـة عرب آسـية الوسطى(٣٠) ٠

والمؤسف ان جميع هـذه الدراسات كتبت بلغـات اجنبية ، ولم يترجم منها اى شىء الى العربية ٠

أما الدراسـات التى كتبهـا البأحثـون العرب فهى قليلة من بينها المقـالات التاليـة :

ـ عرب عن العرب منقطعون لمحمود الغـول نشره بمجلة العـربى سـنة ١٩٥٩ م ٠

---

(٢٩) عفيـفى ، ٩٦٤/٣ ٠

(٣٠) المصـدر السـابق ٩٦٥/٣ ، ٩٦٦ ٠

ـ العرب فى آسـية الوسطى لمحمد جميل بيهم نشره بمجلة المعرفة سـنة ١٩٦٦ م ٠

ـ العرب فى الاتحاد السوفيتى لنجـدة فتحى صفوة نشر بمجـلة العـربى سـنة ١٩٥٩ م ٠

كما ترجمت محاضرة تسرتلى التى ألقـاها فى النـدوة اللبنانية ببيروت سنة ١٩٥٦ م ونشرت بمجـلة المجمـع العلمى العـربى بدمشق سـنة ١٩٥٦ م ٠

مراجع هـذا الفصـل

ـ بيهم ، محمـد جميل :
العرب فى آسيا الوسطى · المعرفة ع ٥٥ ، س ٥ ، ١٩٦٦ م ·

ـ دائرة المعـارف الاسلامية ·

ـ طلعـت ، أحمـد :
المسلمون فى روسية · بيروت ، النشر للجامعـة ، ١٩٥٨ م ·

ـ صـفوة ، نجـده فتحى :
العرب فى الاتحاد السوفيتى ، العربى ، ع ١٢٤ ، ١٩٦٩ م ·

ـ العقيـقى ، نجيب ·
المستشرقون ، القـاهرة ، دار المعـارف ، ١٩٦٥ م ·

ـ الغـول ، محمـود :
عرب عن العرب منقطعون · العربى ع ٩ ، ١٩٥٩ م ·

ـ فاجـرى ، أرمينيـوس :
تاريخ بخارى تعريب أحمد محمود السأداتى · القاهرة ، المؤسسة المصرية ، ١٩٦٥ م ·

ـ لسـترنج ، كـى :
بلدان الخلافة الشرقية تعريب بشير فرنسيس وكوركيس عـواد ، بغـداد ، المجمع العلمى ١٩٥٤ م ·

ـ اللكنـوى ، عبـد الحى :
الفوائد البهية فى تراجم الحنفية مع التعليقات السنية · دهلى ، ندوة المعـارف ·

ـ المفـكر العـربى · ع ٨ ، س ١ ، ١٩٦٩ م ·

ـ النرشـخى ، أبو بكر محمـد بن جعفر :

تاريخ بخارى تعريب أمين بدوى ، ونصر الله الطرازى · القاهرة ، دار المعـارف ١٩٦٥ م ·

الباب الرابع

أبو دلف الأديب

الفصـل الأول

أبـو دلـف كاتبـا

أمامنا نصوص نثرية كثيرة لأبى دلف ، منها رسالتاه فى وصف رحلاته عبر الصين والهند وآسيا الوسطى ، ومنها رسائل نثرية صغيرة ٠

وهـذه النصوص تظهر لنا بوضوح شخصية أبى دلف الأدبية ٠

عنه كاتب عميق المعانى ، كثير التجربة ، عظيم الخبرة ، دقيـق الأفـكار ٠

وهـو الى جانب ذلك سمح الأسلوب ، عـذب اللفظ ، واضـح الصياغة ، وضـوح معانيه ، ليس فى أدائه تعقيد ، أو اغراب أو تكلف أو حـوشية ، أو معاظلة ٠

أسلوبه أقرب الأساليب الى سماحة أسلوب المطبوعين ، ووضوح أساليب المعاصرين ، كأنه أسلوب صحفى معاصر ، مطبوع على البيان الجيد ، متمكن من اللغـة والبلاغـة ٠

وقـد كان أبو دلف يعيش فى عصر المطبوعين على البيان ، وفى ذروتهم ابن العميد ، والصاحب ، والخوارزمى والبديع ، والصابى ، وأبو حيان ، ،غيرهم من أعلام البلاغة والكتابة والنثر الفنى ٠

أبو دلف يتخـذ من الرسـالة مادة لعمله العلمى ، ويبعـد عـن قيود الصناعة البديعية وزخارفها ووشيها ، مع التركيز الشـديد فى رسائله ، ومـع الوصف الدقيق للأشياء التى يصفها ٠

ومقـدمتا رسالتيه تمتازان بأسلوبهما السنى السهل ، ومـع ذلك فان سـعة ثقافة الرجـل فرضت نفسها على كتابته ، فليس هناك كلمة

غريبة أو حرف قد جيء بها أو به لغير ما داع يتطلبه المعنى والغرض المسوق له الكلام ٠

وأبو دلف قلما يعنى بالحديث عن نفسه وتجاربه فى كتاباته ، فهو كاتب موضوعى أكثر منه كاتبا وصفيا ٠

وهو جدير باهتمامنا ، وعنايتنا وتقديرنا لعلمه وتعدد ثقافته ، وسعة جوانب شخصيته ٠

ويبدو أن اتصاله الوثيق بالساسانية والساسانيين ، قد قرب أسلوبه من واقع الحياة ، ومن حاجة العصر الى الدراسات الطبيعية والطبية والعلاجية والأثرية والجيولوجية ، وجعل جانب العلم أغلب عليه ، وأظهر على أدبه من جانب الخيال والعاطفة ٠

ومن العسير أن نفترض أنه لم يحى حياة الساسانيين ، فأدبه قطعة من صميم حياتهم ، وليس فيه أثر للتقليد أو الصنعة أو الزيف ، وصلة أبى دلف الوثيقة بهذا الوسط الاجتماعى المتميز جعله نموذجا حيا للساسانى الخالص(١) ٠ وجعل من أدبه وتجاربه صورة واضحة متكاملة نظر اليها مثل البديع الهمذانى فى اكبار واجلال وتقدير ، واتخذها نموذجا فنيا فى عمله الأدبى الجديد فى فن المقامة ، مما سنحيط به فى شىء من التفصيل بعد قليل ٠

---

(١) حب أبى دلف للفن وظرفه جعله يحترف الأدب الساسانى احترافا مبدعا ، حتى لم يبق فرق بين الأصل والصورة ، والطبع والصنعة ، وكذلك كنا نرى فى عصرنا أناسا يرتدون - من أجل الظرف والفكاهة - رداء أشعب فى جشعه وطمعه ، وهم أعز نفسا ، وأكرم طبعا ٠ وعلى أية حال فهناك فرق بين النموذج والأصل أو الحقيقة ، ونحن مضطرون لأن نقول هنا ما قلناه عن ساسانيته لأن أبا دلف صور نفسه فى قصيدته الساسانية بهذه الصورة الساسانية الخالصة ، واذا علمنا أن أبا دلف عاش فى قصور الملوك ونال جوائزهم ، وكانت له ألف حرفة - كما يقولون - أدركنا أنه لم يكن ساسانى التكسب ، بل ساسانى الفن وحده ٠

الفصل الثانى

أبو دلف .. شاعرا

- ١ -

عاش أبو دلف عالم ينبع وأديبها وشاعرها فى عصر ازدهار الشعر ونهضته فى القرن الرابع الهجرى ، عصر المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ) ، والشريف الرضى (٣٥٩-٤٠٦هـ) ، وأبى فراس الحمدانى (٣٢٠-٣٥٧هـ) والوفاء (٣٦٦ - ٤٠١ هـ) ، والسلامى (٣٩٤ هـ) ، وكشاجم (٣٥٠ هـ) ، والخالديين ، وابن الحجاج (ت ٣٩١) ، والوأواء الدمشقى (ت ٣٩٠ هـ) ، والصنوبرى (٣٣٤ هـ) ، وقابوس بن وشمكير (٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) وابن سكرة (٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) ، والبستى (٣٣٠ - ٤٠٠ هـ) ، وسواهم من أعلام الشعر العباسى .

وشهر - أول ما شهر ابن ينبع - بالشعر ، فقصد به ملوك الساسانيين ووزراءهم يمدحهم ، وينشد فيهم القصائد الطوال ، ثم ذهب الى البويهيين ، ملوكهم ووزرائهم ، فمدحهم بقصائده الجياد .

ومن الأسف أن شعر أبى دلف أو ديوانه يعد مفقودا حتى اليوم، ولا نعرف له الا القليل جدا من شعره ، مما سجله الثعالبى فى « اليتيمة » ، ومن أهم ما حفظه الثعالبى لنا من هذا التراث الشعرى قصيدة أبى دلف - أو رائيته الساسانية ، التى سوف نتحدث عنها بعد قليل .

- ٢ -

واشهر اغراض شعره : المدح - والهجاء - والفكاهة ، واهم أغراضه الشعرية على الاطلاق هو شعره الساسانى الذى سنتعرض له .

ولنبدأ بذكر مقتطفات مما بقى من شعره ، لنتعرف الى شاعريته ، ونقف على مدى اصالته ٠

١ - كان أبو عيسى بن المنجم الطبيب من جلساء الصاحب ، وكان الصاحب قد أهداه دابة فارهة ، فكان يركبها كلما قصد مجالس الوزير ، وهلكت الدابة أو قل نفقت ، فطلب الصاحب من شعرائه ان يكتب كل منهم قصيدة فى رثاء البرذون الراحل ، وينشدها فى مجلسه ، ويقدمها الى ابى عيسى ، فاجتمع الشعراء ، ثلاثة عشر شاعرا ، فى مجلس حافل من مجالس الصاحب ، وألقى كل منهم قصيدة(١) ٠٠ وقام شاعرنا أبو دلف فأنشد أرجوزة طويلة فى رثاء الفقيد ، ضمنها أحر عواطفه ، فماذا قال الشاعر فى هذا الموضوع ؟ استمعوا الى أبى دلف ينشد(٢) :

دهر على أبنائه وثاب

يا لك دهرا كله عقاب

اصبح لا يردعه العتاب

واها لثاء ما له ايـاب

لكل قلب بعده اكتئاب

ذو نسب تحسده الأنساب

قد كملت فى طبعه الآداب

كأنما غرته شهاب

كأنما لبـاته محراب

لا خبر منك ولا كتاب

تناوبتك للردى أنياب

---

(١) ٣ : ٢١٣ - ٢٣٦ يتيمة الدهر ٠

(٢) ٣ : ٢٢٣ - ٢٢٥ المرجع ٠

تجزع من امثالها الأحباب

وكنت لو طالت بك الأوصاب

يخف فى مصرعك المصاب

وأنت فرد ما له أتراب

قل لأبى عيسى : وما الاسهاب

بذافع : تم لك الثواب

فاسكن فهذا الصاحب الوهاب

فى جوده وفضله مناب

٢ ـ ويقول ابو دلف أيضا يصف ترفه وشجاعته(٣) :

انى امرؤ كسروى الفعال
أضيف الجبال وأشتو العراق

والبس للحرب اثوابها
واعتنق الدارعين اعتناقا

يقول ابن الفقيه : اختار أبو دلف بفضل رأيه أن يصيف الجبال ، ليسلم من سمائم العراق وذبابة وسخونة مائه وهوائه ، ويشتو بالعراق ليسلم من زمهرير الجبال وكثرة رياحها ووحولها ٠

٣ ـ ولما طوت الأحداث حياة أبى دلف المترفة ، فأحالته فقيرا بعد غنى ، قال(٤) :

الم ترنى حين حال الزمان
أصيف العراق وأشتو الجبالا

---

(٣) ٢٤١ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ـ طبعة أبريل ١٣٠٢ هـ ٠
(٤) ٢٤١ المرجع السابق ٠

سموم المصيف وبرد الشتاء
حنانيك حالا أزالتك حالا

فصبرا على حدث النائبات
تأبى الحوادث الا انتقالا

٤ ـ ووقف أبو دلف أمام بعض آثار تدمر فى الشام ، فقال :

ما صورتان بتدمر قد راعتا
أهل الحجى وجماعة العشاق

غبرا على طول الزمان ومره
لم يسأما من ألفة وعناق

فليرمين الدهر من نكباته
شخصيهما منه بسهم فراق

وليبلينهما الزمان بكره
وتعاقب الاظلام والاشراق

كى يعلم العلماء أن لا دائم
غير الاله الواحد الخلاق

٥ ـ ولأبى دلف حكم مأثورة مشهورة ومنها أبياته السائرة(٥) :

هى المقادير تجرى فى أزمتها
فاصبر فليس لها صبر على حال

---

(٥) كتاب التمثيل والمحاسرة للثعالبى ، ومن الطريف أن هذه الأبيات لشهرتها رويت بروايات مختلفة ، ونسبت لكثير من الشعراء، منهم : الشافعى ، والواثق العباسى ، واسحاق الموصلى .

دع المقادير تجرى فى أعنتها
ولا تبيتن الا خالى البال

ما بين طرفة عين وانتباهتها
يغير الله من حال الى حال

وليس بين أيدينا نصوص من حكمه لأن شعره مفقود الا النماذج القليلة التى رواها الثعالبى ٠

٦ ـ ويذكر الثعالبى أن الصاحب الوزير بنى قصرا بأصبهان ، وانتقل اليه ، واقترح على شعرائه أن يقولوا فيه شعرا ٠ وفى يوم حافل اجتمع شعراؤه الثلاثة عشر فى مجلس الصاحب ، ومن بينهم شاعرنا أبو دلف(٦) ، فأنشد كل منهم قصيدة طويلة فى مدح الصاحب ووصف القصر ، وقد ذكر الثعالبى هذه القصائد ومن بينها قصيدة أبى دلف ٠ ومطلع قصيدة أبى دلف هو :

رأينا طلعة الدار شموسا مع أقمار

ولى مسألة بعد فعاجلنى باخبار

بنيت الدار فى دنياك ، أم دنياك فى الدار ؟

٧ ـ ولننتقل الى قصيدة أبى دلف الساسانية المشهورة العجيبة ٠٠ وقبل أن نذكرها نذكر مدلول « الشعر الساسانى » ٠

ـ ٣ ـ

الشعر الساسانى له بذور قديمة فى شعر الصعاليك ، وفى مزاج أشعب وطبقته ، وفى أدب الجاحظ فى بعض كتاباته ٠

---

(٦) ٣ : ٢٠٢ ـ ٢١٣ اليتيمة ٠

وقد عم الفقر البلاد الاسلامية فى العصر البويهى ، كما ذكرنا آنفا ، وما أقسى ما قاله أبو حيان فى كتابه « الامتاع والمؤانسة »(٧) : القوت لم يكن اليه سبيل الا باخلاق المروءة ، وتجرع الأسى ، ومقاساة الحرقة ، ولذع الحرمان ، والصبر على ألوان وألوان ، أو ما يقوله ابن لنكك البصرى :

جار الزمان علينا فى تصرفه
وأى دهر على الأحرار لم يجر ؟

وكان كثير من الساخطين والمشعوذين والمحتالين والسائلين الحواة يجوبون البلاد ، ويطوفون بالأقاليم ، ويتفننون فى اختراع الحيل للحصول على المال ، ويظهرون أحيانا أن صدقا وان كذبا أنهم مجاهدون أحيانا أو من أبناء السبيل ، أو ممن نهبت أموالهم فى الطريق ، أو مرضى ، أو غير ذلك ، فأطلق على هؤلاء بنو ساسان ، أو الساسانيون(٨) وكان جامع الاهواز مأوى الكثير منهم(٩) .

وظهر الشعراء والأدباء الذين يقولون شعرهم وأدبهم فى الاستجداء ، وفى الاحتيال على أخذ المال من أى طريق ، وقيل لجماعة هؤلاء الشعراء والأدباء أيضا : ساسانيون ، وقيل لأدبهم وشعرهم : أدب وشعر ساسانى . وكم هناك من فرق بين المدح وبين الاستجداء والاحتيال على الناس ؟

وللساسانيين لغة واصطلاحات خاصة لا يعرفها الا من كان منهم ، وتعرف هذه اللغة باسم « مناكاة بنى ساسان » ، وكان الصاحب يحفظ منها الكثير حفظا عجيبا ، كما يقول الثعالبى فى اليتيمة(١٠) ، وكان يعجبه من أبى دلف وفور حظه من هذه اللغة فى شعره ،

---

(٧) ٢ : ١٤٢ الكتاب المذكور .

(٨) ٤٦/١١ و ٤٧ دائرة المعارف الاسلامية .

(٩) ٧ أحسن القاسيم للمقدسى .

(١٠) ١٧٦/٣ اليتيمة .

وبخاصة فى قصيدته الساسانية الطويلة ، التى كتبها وقدمها(١١) الى الصاحب ، ووصف فيها حيل بنى ساسان وأساليب حياتهم ، وقد اختار منها الثعالبى فى اليتيمة نحوا من مائتى بيت ٠

هذا هو معنى الشعر الساسانى باجمال ، فمن هو ساسان الذى نسب اليه هذا الشعر ؟

قيل : هو أمير من الأسرة الساسانية(١٢) الفارسية المالكة ، حزن لما تولت أخته الملك وحرم هو منه ، فاشترى غنما ، وجعل يرعاها ، ويعير بأنه راعى غنم ، فنسب اليه كل من احترف الكدية ٠

وقيل(١٣) : أن الساسانيين كانوا شراذم الأمراء من بنى ساسان ، جاء الاسلام فذلوا بعد عز ، وافتقروا بعد غنى ، ورحلوا من مكان الى مكان ، فصارت نسبتهم الى الساسانيين نسبة عار وذل ، بعد أن كانت نسبة شرف ومجد ٠

وقيل أن ساسان كان رجلا من عامة الناس ، ماهرا فى الحيلة والاستجداء ، فنسب اليه هؤلاء ٠

وكان من الساسانيين شعراء صقل الحرمان مواهبهم ، وأنضج الالم عبقريتهم ، ومنهم شاعرنا أبو دلف ، وشاعر آخر ضاهاه فى رفعة المنزلة فى الأدب الساسانى ، وهو الأحنف العكبرى ، الذى قيل عنه : أنه آدب بنى ساسان فى بغداد ، وقال الثعالبى عنه : هو

---

(١١) ٢١٨ « الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى » ـ طبعة عام ١٩٤٩ م٠
(١٢) أسرة فارسية حكمت ايران ، أولهم أردشير (٢٢٦ ـ ٢٤١ م) ، وآخرهم يزدجرد الثالث (٦٣٢ ـ ٦٥١ م) الذى سقطت الامبرطورية الفارسية فى عهده فى أيدى المسلمين (راجع ١١/٤٧ ـ ٥٥ دائرة المعارف الاسلامية و ١ : ١٤٢ « ظهر الاسلام لأحمد أمين » ٠
(١٣) هو رأى محمد عبده فى شرحه لمقامات البديع ـ ص ٩٧ ٠

فرد بنى ساسان اليوم بمدينة السلام(١٤) .

وقد أكثر العكبرى من تصوير بؤسه وحرمانه ، فيقول :

العنكبوت بنت بيتا على وهن
تأوى اليه وما لى مثلها وطن

ويقول أيضا :
عشت فى ذلة وقلة مال
واغتراب فى معشر أنذال

بالأمانى أقول لا بالمعانى
فغذائى حلاوة الآمال(١٥)

---

(١٤) ١١٧/٣ اليتيمة ـ ٢٢٤ بديع الزمان للشكعة .
ولقد ذكر الجاحظ ـ فى « المحاسن والأضداد » وفى « البخلاء » ص ٣٦ ـ الكدية والمكدين .. وفى المحاسن والمساوىء للبيهقى نصوص عن الجاحظ فى ذلك (٦٢٢ ـ ٦٢٤) المحاسن للبيهقى) .
ويذكر بديع الزمان فى مقاماته اللصوص وحيلهم ـ راجع المقامة الرصافية ـ كما يذكر الكدية كذلك ، وفى مقامته الساسانية ، التاسعة عشرة ، يدافع عن الكدية ، ويذكر الكثير من بواعثها وقد ذكر التوحيدى (٢/١٤٣ الامتاع والمؤنسة) الساسانيين راثيا لحالهم .
وفى مقامات الحريرى المقامة الساسانية التاسعة والأربعون ، وفيها يوصى ابو زيد السروجى ابنه وولى عهده وكبش الكتيبة الساسانية من بعده بصناعة الكدية ، وبالزهد فى غيرها من الصناعات ، ولو كانت امارة أو تجارة أو زراعة أو صناعة .
وأدوات صناعة الساسانيين كما صورها الحريرى : الفطنة والذكاء والوقاحة ، وأن يكون الساسانى أجول من قطرب ، وأسرى من جندب ، وكذلك الجد والمثابرة ، فلا يسأم الطلب ، ولا يمل الداب ، وعليه بالأقدام ولو على الضرغام ، مع تحليه بالبلاغة ، بأن يكون أخلب بصوغ اللسان ، وأخدع بسحر البيان الخ .
ولصفى الدين الحلى قصيدة ساسانية طويلة فى ١٤٥ بيتا .
(١٥) راجع ٣ : ١١٧ ـ ١١٩ اليتيمة .

ودالية الأحنف الساسانية مشهورة وفيها يقـول :

علـى انـى بحمـد الله ... فـى بيت مـن المجـد

باخـوانى بنى ساسا ... ن اهـل الجـد والجـد

لهـم ارض خراسـان ... فقاشـان الـى الهنـد

الـى الـروم الـى الزنـج ... الـى البلغـار والسـند

قطعنـا ذلـك النهـج ... بـلا سـيف ولا غمـد

وقـد هـزت هـذه القصـيدة أبا دلف ، فعارضها بقصيدته الساسانية المشهورة ، التى حشر فيها الخليفة المطيـع لله العبـاسى (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) - الذى لم يكن يملك فى ظـلال البويهيين من الأمـر شيئا ، حشره فى جملة الساسانيين الصعاليك الفقراء ، وكأن ذلك ممـا يتندر به الصاحب وعضـد الدولة ، وهـو على أى حال تندر مـر لأنه يشير الى الحقيقة المرة كاملة ، اذ كان الخليفـة فى ظـل البويهيين لا شـأن لـه بشىء من أمور الخلافة والسلطان ، ويعيش دائمـا فى فقـر وحـرمان .

قصـيدة أبى دلـف الساسانية(١٦) :

قصيدة طـويلة ساسانية ، ذكرها الثعالبى فى اليتيمة ، وشرح كثيرا من اصطلاحاتها الساسانية ، ولهـا أهمية كبيرة ، لا فى شـعر أبى دلف ، ولا فى الشعر الساسانى ، وحـدها بخاصـة ، بل فى الشعر العبـاسى عـامة .

وقـد اهتم بهـا المستشرقون اهتماما شـديدا ، فعنـوا مثلا بعـدا

---

(١٦) ٢ : ٢٥٤ - ٣٧٢ اليتيمـة .

جاء فيها من وصف الأوانى الصينية(١٧) ·

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين ، ولا يقاربها فى هذا الباب أثر ادبى آخر الا مقامات البديع ·

وقد استخدم أبو دلف بكثرة فى القصيدة كلمات غامضة من اللغة السرية لآل ساسان ، وقد شرحها الثعالبى وكشف عن مغاليقها ، ولولا ذلك لما فهمنا عنها شيئا · وكان أبو دلف يجيد هذه اللغة تماما وقد علم الصاحب اياها بنجاح ، وقد أعلن أبو دلف أنه نفسه من زمرة الساسانيين ·

يقول شاعرنا من هذه القصيدة :

جفون دمعها يجرى	لطول الصد والهجر
وقلب ترك الوجه	به جمرا على جمر
لقد ذقت الهوى طعمين	من من حلو ومن مر
ومن كان من الأحرا	ر يسلو سلوة الحر
كأمثالى ، وفى الغربة	أودى أكثر العمر
وشاهدت أعاجيبا	وألوانا من الدهر
على انى من القوم الـ	ـبهاليل بنى الغر
بنى ساسان والحامى الـ	ـحمى فى سالف العصر

(١٧) « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » ، د· زكى حسن ·

فنحن الناس كل النا ... س في البر وفي البحر

اخذنا جزية الخلق ... أرض خيلنا تسرى

الى طنجة ، بل في كل ... من الصين الى مصر

لنا الدنيا بما فيها ... من الاسلام والكفر

فان ضاق بنا قطر ... نسر عنه الى قطر

ويقول أبو دلف في القصيدة أيضا :

ومنا شعراء الأر ... ض اهل البدو والحضر

ومنا سائر الأنصا ... ر والأشراف من فهر

ويستطرد أبو دلف ، فيجعل الخليفة المطيع لله العباسي من جملة الساسانيين :

ومنا قيم الدين الـ ... ـمطيع الشائع الذكر

وكان معز الدولة ثم ابنه عز الدولة قد ساموه الذل والهوان(١٨) ..

ثم يقول أبو دلف :

سقى الله بنى ساسا ... غيثا دائم القطر

ألا انى حلبت الدهـ ... ـر من شطر الى شطر

---

(١٨) ٨٦/٦ و ٣٠٧ « تجارب الأمم » لمسكويه .

وجبت الأرض حتى صر ت فى التطواف كالخضر

وللغربة فى الحر فعال النار فى التبر

وما عيش الفتى الا كحال المد والجزر

فبعض منه للخير وبعض منه للشر

فان لمت على الغربة مثلى فاسمعن عذرى

أمالى أسوة فى غر بتى بالسادة الطهر

فان اظفر بآمالى شفيت غلة الصدر

وقد تخفق فوقى عز ة ألوية النصر

واما تكن الأخرى فلا أبت مع السفر

ولا عدت منى عدت بلا عز ولا وفر

هذه هى أبيات من القصيدة الساسانية ، التى نظمها أبو دلف، وانشدها الصاحب ، وطارت شهرتها بين الأدباء وقد أتينا على أبيات قليلة منها بعيدة عن اصطلاحات الساسانيين العويصة ٠

ولا نقول عنها الا أنها وثيقة أدبية كبيرة(١٩) الدلالة فى الشعر العباسى ، وأنها من أرفع نماذج الشعر الساسانى وهى حافلة بالبلاغة والصور والأخيلة العجيبة ٠

---

(١٩) بعد أن كتبت ذلك وجدت آدم متز « فى الحضارة الاسلامية » ، ٢ : ١٠٧ يقول عنها : انها وثيقة اجتماعية فى القرن الرابع ٠

الفصـل الثـالث

أبو دلف « نموذجا أدبيا رفيعا فى مقامات البديع »

- ١ -

كان ابتكار البديع الهمـذانى (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ - ١٠٠٧ م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقـامة حـدثا أدبيـا جـديدا فى الأدب العـربى ·

فلقـد بهر النقاد والرواة أسلوبها ، ونزعـة القصة فيها ، وهـذا الحـوار الذى طالمـا دار بين بطلها أبى الفتح الاسكندرية وراويتها عيسى ابن هشام ، كما بهرهم هـذا النمـوذج الفنى الرفيـع الذى تمثل فى شخصية الساسانى أبى الفتح البطـل ·

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتانا شـديدا ·

وليس هنـاك الا البديع نفسه ، فهو أبو المقـامة فى الأدب العربى ، وصاحب الفضـل فى انشائها ، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاسـم ابن على البصرى (٤٤٦ - ١٥١٦ هـ) فى مقـدمة مقاماته ، فقـد جعل ابتداع المقامات راجعـا الى بديع الزمان ، وعلامة همـذان ، وكذلك جعل الثعالبى فى « اليتيمة » البديع أبا عـذرتها ، والواضـع لأصولها وخطتها ويتابعهم فى ذلك كثيرون ، منهم مارون عبـود مثلا ، اذ يقـول(١) : ان خطة المقامات من عمـل البديع ، فهو الذى ألبسها هـذا الطراز ، وعلى طريقه هـذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف عام ، وعبثا نحاول العثور على أثر لهـذه الخطة عند غير البديع ·

---

(١) ٢٤ « بديع الزمان » لمـارون عبـود ·

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول(٢) : فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى ٠

هذا هو الرأى السائد فى نشأة المقامة ، ولكن الحصرى صاحب كتاب « زهر الآداب » يذهب فى كتابه(٣) الى أن البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك(٤) أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامة ، وان كان لـه فضل فى نشأتها ، وينفى مؤلف كتاب «بديع الزمان رائد القصة القصيرة» وهو مصطفى الشكعة(٥) أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع ٠

ويجعل آخرون البديع محتذيا حذ استاذه ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فى رسائله الحوارية ٠

ويذكر آخرون ، ومن بينهم شوقى ضيف(٦) ، أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن أهل الكدية ، ومع جواز ذلك فى المضمون ، فان شكل المقامة الفنى يبقى جديدا كل الجدة عند البديع : وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة فى اى عمل أدبى أو غير أدبى ٠

ويجعل بعض المستشرقين أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات ، ويذكر آخر أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر فى نشأة المقامة ، وهذا كله كلام يعوزه الدليل ولا تنهض به الحجة(٧) !

---

(٢) ص ١٦ « مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته » ـ مازن مبارك ٠

(٣) ١ ٠ ٢٣٥ « زهر الآداب » ٠

(٤) « النثر الفنى » لزكى مبارك ٠

(٥) ص ٢٠٧ « بديع الزمان » الشكعة ٠

(٦) ٢٠ « المقامة » لشوقى ضيف ـ طبع دار المعارف ٠

(٧) راجع ١٤٦ « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » للمؤلف ٠

ويذهب آخرون الى أن المقامة مقتبسة من أصل فارسى ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت فى الأدب الفارسى قبل بديع الزمان ، اذ لم تعرف المقامة فى الأدب الفارسى الا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان ٠٠ فأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخى الذى بدأ بكتابتها عام ٥٥١ هـ وتوفى بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨ هـ/١١٦٤ م) كما يقول براون ، ويؤكد محمد تقى بهار(٨) أن المقامة من اختراع البديع ، وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان له صداه فى الأدب الفارسى وأن حميد الدين قلد البديع والحريرى فى مقاماته ، ويذكر الأنورى اعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين ٠

ان هذه القصة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفنى الملتزم ، والصياغة الطريفة ، والصيغة الجديدة ، والفكرة الساسانية ، التى دعيت مقامة ، قد أنشأها بديع الزمان الهمذانى ، لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة فى عصره ٠

ـ ٢ ـ

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانيا هو أبو الفتح الاسكندرى ، وهو الذى مثل كل أدوارها ، ونهض بجميع فصولها ، وقام بكل أحداثها ٠

وشخصية أبى الفتح ـ كما تبدو من خلال المقامات ـ شخصية رائعة حقا ، فهو بطل الموقف كله فى المقامة ، وهو ـ كما يصوره الهمذانى ـ عالم وأديب وشاعر ، وهو ناقد بليغ ، ومغامر محتال ماهر ، مشرد فى الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد الا الكدية والاحتيال بكل أسلوب من أجل المال أو الطعام ٠ وهو الى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها ، عركها وعركته ، يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية ، يهز الناس بفصاحته وبلاغته ٠

---

(٨) « تاريخ تطور النثر الفارسى » ـ محمد تقى بهار ٠

وكنية أبى الفتح لعل البديع رمز بها الى فتوحات هذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية ٠

أما وصف الاسكندرى الذى لازمه فقد يكون معززا لذلك المعنى على أنه نسبة الى الاسكندر ، فتكون فتوحات أبى الفتح فى أموال الناس شبيهة بفتوحات الاسكندر ٠ وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر فى مقاماته قوله « اسكندرية دارى »(٩) ، نسبة الى الاسكندرية لا الى الاسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٣ ق م) ٠٠ ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين ، فتكون نسبته الى الاسكندرية مقصودا بها الرمز الى شبهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الاسكندر التى تنتسب اليه مدينته ٠

ويقودنا ذلك الى التساؤل : أية اسكندرية كان يعنى البديع ، وكان ينتسب اليها أبو الفتح الساسانى ؟

فى المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثا عن نفسه : انى امرؤ من أهل الاسكندرية من الثغور الأموية ٠ وفى المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول : من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية ٠ ويكرر أبو الفتح نسبته الى الاسكندرية فى مواضع كثيرة أخرى ٠

فاذا رجعنا الى ياقوت (١٠) وجدناه يذكر أن الاسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعده ، فمنها : اسكندرية مصر ، والاسكندرية التى صار اسمها سمرقند ، والتى صارت مرو ، والتى سميت بعد باسم بلخ ، واسكندرية الأندلس التى على النهر الأعظم - نهر اشبيلية - وهى التى رجحها الامام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس فى القرن الرابع الهجرى عصر البديع ٠ الا أنى وجدت

---

(٩) راجع مثلا فى المقامة الأربعين - العلمية - قول البديع :

اسكندرية دارى لو قر فيها قرارى

(١٠) ٢٣٥/١ معجم البلدان ٠

رحالة عربيا فى القرن الرابع ـ هـو أبو دلف ـ يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند ، ويقول عنها : ان الخليفة الأموى مقيم بها(١١) ، فهل كانت هذه المدينة قديما تسمى الاسكندرية أيضا ، ليصبح أمامنا احتمال جديد آخر ، ويذكر باحث عراقى أن الاسكندرية بين بغداد والحلة(١٢) ، ولكن ما صلتها اذن بالثغور الأموية ؟ ٠

ويذهب عبد الوهاب عزام الى أن صحة الكلمة « الآموية » نسبة الى نهر آموى(١٣) ـ جيحون ـ وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة هى مدينة الاسكندرية على نهر آموى ٠

ومع ذلك كله فلا نزال نسير فى بيداء سحيقة ٠

ـ ٣ ـ

ونسائل أنفسنا : من هو أبو الفتح الاسكندرى اذا ؟

١ ـ هناك رأى سائد أنه شخصية أسطورية خيالية محضة ، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريرى فى مقدمة مقاماته : كلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف ٠ وهذا ما رجحته منذ عشرين عاما فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١٤) ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسى ايوار ، فيقول : وضع البديع شخصا خياليا ابتكره وسماه أبا الفتح ،وذهب بعض الباحثين الى أن عيسى ابن هشام راوية المقامات كان شيخا للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيروية (٥٠٩ هـ) مؤلف تاريخ همذان ، وينقل ذلك عنه ياقوت فى معجم الأدباء ، ولعل ذلك وهم ناشىء من قول البديع فى مطلع كل مقامة من

---

(١١) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٤٠٩/٥ معجم البلدان ٠

(١٢) يعد رسالة ماجستير عن مقامات الحريرى ، واسمه طارق العوسج، وهو مدرس بمكة المكرمة حاليا ٠

(١٣) ٢٣٤ بديع الزمان للشكعة نقلا عن محاضرات عزام فى كلية الآداب عام ١٩٤٤ م ٠

(١٤) ص ١٤٧ الكتاب المذكور ٠

مقاماته : حدثنا عيسى بن هشام • ولو ذهبنا الى أن أبا الفتح هو الذى كان أستاذا للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث ، وأكثر انطباقا على الموضوع •

وممن ذهب الى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب « بديع الزمان » الدكتور الشكعة الذى يقول : حاولنا أن نجد لبطلى المقامات صدى تاريخيا فلم نعثر لهما على أثر والغالب انهما من ابتكار خيال البديع نفسه(١٥) •

٢ - وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ويذهب الى ذلك بعض المستشرقين ، الا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية •

وأنا معهم فى ذلك • ولكنى أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبى الفتح بطل المقامات البديعية •

ويذهب باحث عراقى(١٦) سبق الاشارة اليه الى أن أبا الفتح هو البديع نفسه ، ومن قبل قلت ذلك فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١٧) حيث ذكرت أنه قد يكون فى حياة أبى الفتح شىء من صفات البديع نفسه ، وشىء من أخلاقه • ولكنى أخالف ذلك اليوم ، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل •

ويذهب باحث آخر(١٨) الى أن الكدية أو الساسانية التى كانت صناعة أبى الفتح « نجد من أعلامها فى عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة : كابن الحجاج (ت ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (ت ٣٨٥ هـ)

---

(١٥) بديع الزمان ص ٢٣٢ •

(١٦) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريرى •

(١٧) ص ١٥٧ و ١٥٩ الكتاب المذكور •

(١٨) ص ٢٣٤ « الأدب فى ظل بنى بويه » للزهيرى - طبع مصر ١٩٤٩ •

وأبى الورد ، ومن يشبهه من بعض الوجــوه كأبى حيان التوحيدى ، بل البديع نفسه ، ومن يشبهه كل الشبه كأبى دلف والأحنف العكبرى » ٠٠ ومجمل هــذا الرأى أن أشباه أبى الفتـــح الاسكندرى كثيرون فى عصر البديع ، وأن أقربهم شبها به هــو أبو دلــف أو الأحنف ٠ وهــذا الرأى لا يأتى لنا بجــديد ولا بأمر مؤكد فى البحث على أية حال ، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين لــه ٠

٣ – ورايى الذى أذهب اليه اليوم هــو أن أبا الفتح انمــا هـــو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البــديع ، وهــو أبو دلــف الخزرجى وحــــده ٠

وهــذا الرأى لا يسبقنى فيــه باحث ، وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقــائق الأدب فى القرن الرابع ٠٠ ودليلنا عليه هــو ما قالــه الثعالبى فى « يتيمــة الدهــر »(١٩) قال :

أنشدنى بديع الزمان لأبى دلف ، ونسبه فى بعض المقامات الى أبى الفتــح الاســكندرى :

ويحـــــك هـــذا الزمــان زور فـــلا يغــرنك الغـــرور(٢٠)

لا تلتزم حالـــــة ولكــــــن در بالليــــالى كمــــا تــدور

ومن هــذا النص نعرف الحقــائق الآتية :

١ – أنشد البديع الثعالبى شــعرا لأبى دلف ٠

٢ – وهــذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته الى أبى الفتح ، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتــح هــو أبو دلف نفسه بإقرار البديع ٠

---

(١٩) ٣ : ٢٥٤ اليتيمـــة ٠

(٢٠) هــذا الشعر فى المقامة القريضية احــدى مقامات البديع ٠

٣ ـ كان البديع راوية لشعر أبى دلف ، ويبـدو لى أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم ٠

واذن يكون أمامنا رأى جـديد نجزم به ، هـو أن البديع حين كتب مقاماته اختـار أبا دلف أستاذه وصـديقه ومعاصره بطلا للمقامات،وكنى عنه بأبى الفتـح ، وكان أبو دلف أروع نمـوذج ساسانى يصلح بطـلا المقامات ، لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صـوره البديع فى المقامات فى شخص أبى الفتح الاسكندرى ، ولأن شـهرة وتجارب أبى دلف كانت تصلح معينا يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قـد كان ٠

بل انى أضيف الى ذلك أن البديع الهمـذانى حين سمع قصص أبى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد ، واستمع الى فكاهات هـذا الشيخ وسمره فى مجالس الـملوك والأمراء والوزراء رأى أن هـذه الصـورة الفنية تصـلح أساسا لفـن جـديد ابتـكره وسماه « المقـامة » ، فكان أبو دلـف هـو الـملهم للبديع الشاب الذكى بابتكار فـن المقامة فى الأدب ، العربى ، فى القرن الرابع ، وفى عصر أبى دلف ٠

ملحق بالكتاب :

ينبع موطن أبى دلف

ينبع من اقليم الحجاز ، تطل على البحر الأحمر ويقال لها : الينبع ، والينبوع أيضا ، وهما تحريف للاسم الأول ·

وهى الآن امارة تضم مقر الامارة ينبع البحر ، وينبع النخل الزراعية بقراها العديدة ·

وذكر يافوت عن الشريف أبى سلمة بن عياش الينبعى أنه قال : عددت بها مائة وسبعين عينا ·

ومن أشهر جبال ينبع رضوى (يرتفع عن سطح البحر بنحو ١٨١٤ مترا ، ووادى ينبع مشهور ، وبجواره وادى العيص

وقد وقعت غزوة العشيرة فى اقليم ينبع ، وقد غزا رسول الله بنفسه هذه الغزوة ، وهى فى بطن وادى ينبع · وفى ينبع « عين البركة » و « سويقة » من منازل الطالبيين ·

وكان الامام على بن أبى طالب يقيم فى ينبع قبل توليه الخلافة · وكان بها معجبا ، ويروى المؤرخون عنه أنه نظر الى جبالها فقال : « لقد وضعت على نقب من الماء عظيم » · ثم استوطن بنوه واحفاده تلك الجهات وانتشروا وكثروا فيها ، وملكوا عيون ينبع ومزارعها · وازدهرت ينبع فيما بعد حتى فاقت المدينة المنورة · ووصفها المقدسى فى القرن الرابع الهجرى قائلا:«ينبع كبيرة جليلة،حصينة الجدارى،غزيرة الماء، أعمر من يثرب،وأكثر نخيلا،حسنة الحصن،حارة السوق»·وفى القرن السادس الهجرى قامت فيها للحسنيين دولة كان من أشهر رجالها الشريف « قتادة » جد ولاة مكة من الأشراف · وكان قتادة وذووه يسكنون فى « العلقمية » من عيون ينبع المعروفة الآن · وقد استمر الملك فى آل قتادة يتوارثونه حقبة من الزمان واتخذوا من وادى ينبع حصنا لهم · ثم

أصبحت ينبع احدى المحطات الرئيسية التى يمر بها الحجاج القادمون من مصر والشام برا أو بحرا • وكان الحجاج وأهل ركب المحمل يستبشرون باقترابهم من « أم القرى » عند وصولهم الى ينبع • فيقيمون فيها ثلاثة أيام أو أربعة يريحون فيها أنفسهم من عناء السفر حيث النخل الكثير والعيون الجارية والينابيع العذبة المتفجرة • وتقام فيها سوق كبيرة يجد فيها الحاج كل ما يلزمه من أصناف الطعام من لحوم وسمن وعسل وتمر وخضار ، ولهذا كان مرور الحجاج بها يعتبر من المواسم المشهودة •

وفى بداية القرن الثانى عشر الهجرى تعرضت منطقة ينبع للحروب والفتن فحلت بها وبأهلها الكوارث والأرزاء مما صرف سكانها عن العناية بالزراعة ، قوام تلك المنطقة • وفى أول العهد السعودى بعد استتباب الأمن وانتشار العدل ، نشطت حركة الزراعية فانتعشت البلاد بصفة عامة • الا أن هذه الحالة لم تدم طويلا ، اذ نضبت فيها عيون كثيرة أدت الى ضعف حركة الزراعة وبالتالى الى هجرة الكثيرين من أهلها الى جدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة • وقد تنبهت الدولة لهذا الأمر فأعدت لها فى السنوات الأخيرة مشاريع زراعية كفيلة برفع مستواها الزراعى واستقرار سكانها •

أما ينبع البحر فلم يكن لها شأن يذكر عند المؤرخين فى العصور الاسلامية قبل القرن السابع الهجرى ، مع أن بعض المستشرقين يرى أنها كانت معروفة قبل الاسلام ، بل قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وفى صدر الاسلام اتخذ المسلمون الأولون لتجاراتهم الكبيرة من « الجار » ميناء ، عندما كانت لهم علاقات تجارية قوية مع بلاد الحبشة • وقد اكتسب هذا الميناء شهرة كبيرة حتى ان البحر الأحمر كان يعرف ببحر الجار • ويقع الجار فى المكان المعروف الآن باسم « الرايس » الى الجنوب من ميناء ينبع ، بينما يرى بعض الباحثين أنه يقع فى مكان ميناء « البريكة » الذى لا يزال يستعمل على نطاق محدود • وفى أواخر القرن السادس الهجرى بدأ أمر الجار يضمحل وأخذ ميناء ينبع يقوى ، حينما جعله الأيوبيون الميناء الرئيسى

للمـديئة المنورة وأقاموا فيـه بعض الانشاءات • وفى عهد الجراكسة، ، حكام مصر والشام والحرمين ، ارتفع شأن ميناء ينبع لاستقباله الكثير من السفن التى تحمل الجرايات المقـررة من حبـوب للمـدينة المنورة ، بالاضافة الى لوازم الحرم الشريف وما يحتاج اليه ركب المحمل • وفى آخر عهد الجراكسة عمت الفوضى فى الحجاز مما أدى الى انقطاع سيل الحجاج مدة ، فكان اثر ذلك سيئا على الشقيقتين ينبع النخـل وينبع البحر • ثم عاد الميناء الى سابق عهـده ابان حكم السلطان « سليمان القانونى » الذى أمر بانشاء مخازن للحبوب ، وبتشييد جامع كبير فى البلـدة ، وباصلاح الميناء وتوسيعه • ثم تضعضع شأن اقليم ينبع عامة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين بضعف الدولة العثمانية، ولم تتذوق طعم الازدهار ولم تهنأ بالاستقرار بعـد ذلك الا فى العهـد السعودى بعـد أن استتب الحكم ، فادخل عليها من الاصلاحات والمشاريع ما جعلها بحـق مفتاح المدينة المنورة والميناء الثانى على ساحل البحـر الأحمـر الشرقى بعـد ميناء جـدة •

وينتمى معظم سكان منطقة ينبع النخـل الى قبيلة جهينة ، والبعض الى قبيلة حرب • اما أكثرية سكان مدينة ينبع البحر فهم من الأسر العربية التى انتقلت من صعيد مصر واستوطنت هـذه المدينة • هـذا وقـد نزحت اليها مؤخرا بعض الأسر من الأشراف ونشطت ميناؤها • ويعمـل معظم اهالى ينبع النخـل فى الزراعـة وتربية النحـل والمواشى • اما سكان مدينة ينبع البحر فيشتغلون بالتجارة وصيد الأسماك وصـناعة القـوارب الشراعية وفى الوظائف الحكومية المختلفة • ويضم وادى ينبع أربعـا وعشرين قرية صغيرة متقاربة ، تقـوم كل منها على عين ، وهى : الجابرية ، التى تشتهر بسوق يوم الجمعة ، وهى من أقـوى العيون فى المنطقة ، والسكوبية ، والمزرعـة ، وعين عجلان ، وعين على الحربية ، وعين على الجهنية ، والفجة ، وخيف فاضل ، والسويق ، المشهورة بسوق يوم الاثنين النشطة ، اذ يجلب اليها أهـل البادية من المناطق المجاورة المواشى والسمن والعسل والفحم الخشبى والخضار والفـواكه ، والمعروف أن السوق كانت حتى وقت قريب مقر الامارة فى ينبع النخـل ثم أصبحت تابعـة لامارة ينبـع البحر •••

أبو دلـف .. والبـديع

لا ريب أن أبا دلـف هـذا الشيخ المجرب الحكيم ، المتعـدد جوانب الشخصية .. كان ينظـر الى بديع الزمان الشاب المتوقـد ذكاء ونبـوغا وعبقرية .. نظرة الأستاذ الى تلميذه .

وكان البديع يضع أبا دلف موضـع الأستاذية ، ويحـله من نفسـه منزلة رفيعـة ، ويعجب لروحـه الفكهة وثقافته الواسعة ، وظرفه الذى لا حـد لـه ، والى حلو مجلسه ، وروائع نوادره وطرائفه ، بكل تقـدير وحب واعجاب... الشعور نفسه متبادل بين الأستاذ والتلميذ،بين جيل وجيل ، بين عبقرية وعبقرية .

وكان البديع ينصت الانصات العميق لرحلات أبى دلف وصـــور مشاهده فى هـذه الرحلات ، وكان كل ذلك يقـع فى نفسه موقع الاعجاب والاستغراب معـا .

ومن ثم فقـد اتخـذ البديع أستاذه أبا دلف نمـوذجا أدبيـا رفيعـا للساسانى العجيب لظـريف العبقرى الأديب ، وسماه فى مقاماته بأبى الفتـح الاسكندرى ، ورسم لـه صورة رائعـة من الذكاء والمعرفة والبلاغة والقـدرة على امتلاك عقـول الجماهير وأذواقهم معـا .

وجعـل البديع أبا الفتـح بطلا أو قـل (مهرجا) كبيرا ، لا تفوته فرصـة ، ولا تنـد عنه شاردة ، ولا تغيب عن ذهنه اللمـاح خاطرة ، وجعـله محتالا ظريفـا ، وقصيصا بارعا ، وبليغـا يمـلك ألبـاب النـاس وعقـولهم وأذواقهم جميعا .

وبلغ البـديع فى تصـويره لأبى دلف مبـلغ الاتقـان والجـــودة وللروعـة معـا .

وكان أبو الفتح ـ كما صوره البديع ـ خبيرا باقتناص الأموال ،

واستخراج الدراهم والدنانير ، من جيوب الأغنياء والأثرياء ، بل ومن الفقراء أيضا ، ببلاغته وبيانه الساحر الغريب ٠

ورسم ابا دلف ، او قل أبا الفتح ، فى صورة لا يستطيع احد أن يرسمها ، أو ان يصور بطله فى هذا النموذج البديع المذهل ٠

وكان اعجاب الناس وحفاوتهم بهذا النموذج البطل فريدا ، فقرأوا مقامات البديع ، وهم شبه مسحورين ، ورددوها وحفظوها ، وهم جد ميهورين ٠

ومن اين لبليغ أن يكتب مثل هذه الروائع الفريدة ، والشوارد الجديدة ، ومن اين لقلم أن يخرج فرائده فى صورة دونها السحر ، وان كانت فى ثوب النثر والشعر ؟

ولا يرجع هذا العجب العجاب الى ظرف البديع وحده ، بل الى جلال النموذج وعظمته ايضا ، فابو دلف هذا النموذج العبقرى للأديب المحترف الساسانى ، هو هو فى عظمة الصورة المرسومة ذاتها ٠٠ عبقرية الصورة تماثلها عبقرية المصور (بكسر الواو) وعبقرية المصور (بفتح الواو) معا ٠

ومن ثم خلد هذا النموذج وتتوسى اصله ، وبقى النموذج مجهول الهوية ، يتخيل المطالعون له أنه رسم أسطورى لشخص اسطورى٠

ونحن نعجب لمعاصرى ابى دلف والبديع ، وللأجيال التى جاءت من بعدهم : كيف غابت عنهم حقيقة هذا النموذج ، وتناسته ثم نسيته تماما خلال الف عام ٠

والثعالبى فى ذكائه أعطى لنا المفتاح الذى فتحنا به باب هذا الكنز المجهول ، فرأيناه ورآه الناس عجبا ٠

وليس فى وسعنا الا أن نحمد الله أن اتضحت الصورة ، وأن كشفنا

عن أصل هذه الصورة الوحيدة الفريدة ، واذ كان يفرح الانسان بكنز مدفون يهتدى اليه فى باطن الأرض ، فقد كان فرحى كبيرا حقا بأن اهتديت الى الكشف عن أمور عجيبة كانت محجبة فى ضمير الغيب ٠

لقد كشفت عن شخصية أبى الفتح ، وقلت : أنه هو هو ابو دلف الخزرجى الينبعى ، مسعر بن المهلهل ٠

وكشفت فى الوقت نفسه عن شخصية ابى دلف وحياته بالتفصيل ، بعد أن غابت صورته ، وغام شبحه فى ظلال النسيان ٠

وكشفت عن أبى دلف وأنه هو مسعر بن المهلهل ، هذا الرحالة العجيب المتعدد الثقافات والجوانب ٠

قل عنه : أنه اديب ٠

أو قل عنه : انه شاعر ٠

او قل عنه : أنه مؤلف ٠

او قل عنه : انه رحالة جوالة فى الآفاق ٠

أو قل عنه : طبيب حاذق بارع ٠

او قل عنه : انه جيولوجى متميز ٠

أو قل عنه : انه سفير وسياسى رفيع المنزلة فى عصره ٠

او قل عنه : انه نديم الملوك والأمراء والوزراء ٠

قل عنه : ذلك أو قل عنه : أكثر من ذلك ، فهو كل ذلك جميعا أو يزيد ٠

ابو دلف الحكيم وأبو دلف الأديب وابو دلف الظريف ، وابو دلف

السياسى ، صــورة لعبقرية كبيرة عاشت فى القرن الرابع الهجرى ٠

وأنا أقــول : ان القــرن الرابع الهجــرى هــــو عصر المتنبى وأبى دلــف ٠

انهما صــورتان للعصر ، ولم ينجب العصر أرفع منهما قدرا فى المنزلة الأدبيــة ٠

هــو عصر المتنبى وأبى دلــف حقــا ٠

انى لأحيى هــذين العلمين الكبيرين الخالــدين ٠٠

ومن حظى أن أخرج هــذا الكتــاب عن أبى دلف ، وأن يصــدر لى ولصــديقى الأديب الكبير د٠ عبــد العــزيز شرف شرح جــديد لديوان المتنبى ٠

وبالله التوفيـــق ٠٠

خاتمة الكتاب

وبعد ، فهذا أبو دلف الخزرجى بطل مقامات البديع ، رحالة من أعظم الرحالة الجغرافيين المسلمين على امتداد التاريخ وبخاصة فى القرن الرابع ٠

وعالم وطبيب وكيمائى وجيولوجى من الطراز الأول فى عصره ٠

ومنادم فى الذروة ، جلس فى مجالس الملوك ينادمهم ، وينادم الوزراء والأمراء ، وينال عندهم الحظوة والمكانة الرفيعة ٠

وشاعر رفيع المنزلة فى عصره فى الشعر ، وعلم من اعلام الشعر الساسانى الذى كان له طرافته وروعته فى عصره ٠

ونموذج فنى رفيع للساسانية التى تتميز بالظرف وعلو الذوق وجمال الفكاهة ، مما حببه الى الملوك وقربه الى الوزراء ٠

وشخصية فذة اهتزت دوائر المشرق بدراسة افكارها ونتائج الرحلات التى قام بها فى شتى أنحاء آسيا ٠

ولقد كان بديع الزمان الهمذانى وثيق الصلة أبى دلف ، وواقفا على أخباره ، وراوية لشعره ، وفى اليتيمة ما يدل على ذلك(١) ٠ وكانت شخصية أبى دلف ملء سمع البديع وبصره ، ورحلاته وتطوافه فى الأرض موضع عجبه واستطرافه،كما كانت شيخوخة أبى دلف وتجاربه وحكمته وخبرته بالحياة ، وتنقله بين الغنى والفقر ، وحرفته الساسانية وهو علم فيها ٠٠ كان ذلك كله موضع تأمل البديع وتعجبه ، لذلك فان البديع حين كتب مقاماته اتخذ من أبى دلف وحياته وشخصيته بطلا للمقامات التى أبدعها ، ورمز اليه باسم أبى الفتح الاسكندرى ٠

---

(١) ٣ : ٣٢٣ اليتيمة ٠

وتقــول تأكيدا لذلك : ان جميع ما صــور به البديع بطــل مقاماته ابا الفتــح الاسكندرى ينطبق على أبى دلف تمام الانطباق .

فهو خطيب وبليغ وشاعر ، وهــو جوالة فى الآفاق ، وهــو يحترف الساسانية تظرفا ودعابة وحلو فكاهة ، والعجب من قعــود همته مــع حسن آلته ، وهو كهل قــد غير اخيرا فى وجهه الفقر ، وهو كما يقــول البديع فى المقامة الصيمرية على لسان أبى الفتح :

« خرجت اســـيح كأنى المسيح ، فجلت خراســـان الى كرمان ، وسجستان ، وجيلان ، الى طبرستان ، والى عمان ، الى السند والهند ، والنــوبة والنبط ، واليمن ، والحجاز والطــائف ، فجمعت من النــوادر والأخبار والأسحار والفوائد .. ما قصر عنه فتيا الشعبى » ... وهــذا هــو ابو الفتح فى أدق صورة ، وفى أوضح مثالاته ..

والله ولى التوفيــق ..

المؤلــف

المصـــادر والمراجـــع

رجعنا فى هـذا البحث الى كثير من المصادر ، التى نكتفى هنـا بذكر بعضها :

١ ـ يتيمة الدهر للثعالبى ـ بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ـ ٤ أجـزاء ٠

٢ ـ معجم البلـدان لياقوت طبعة مصر ١٣٢٣ هـ ٠

٣ ـ مروج الذهـــب للمسعودى ـ بتحقيـــق محمـــد محيى الدين عبـد الحميـد ٠

٤ ـ أخبـار الزمان للمسعودى ـ طبعة بيروت ٠

٥ ـ التنبيه والاشراف للمسعودى ٠

٦ ـ مقـامات بديع الزمان ٠

٧ ـ مقـامات الحـريرى ٠

٨ ـ عجائب المخلوقات للقزوينى بتحقيق الصيرفى والأبيارى ٠

٩ ـ آثار البـلاد للقزوينى ـ دار صـادر ١٩٦٩ ٠

١٠ ـ الجماهر فى معرفة الجواهر ـ والآثار الباقية : للبيرونى ٠

١١ ـ تحقيق ما للهند من مقـولة للبيرونى ٠

١٢ ـ مختصر كتـاب البلـدان لابن الفقيه ٠

١٣ ـ المسالك والممـالك للاصطخرى ـ طبع القاهرة ١٩٩١ م ٠

١٤ ـ معجم الأدباء لياقوت ـ نشر فريد رفاعى ٠

١٥ ـ ديوان الصاحب ٠

١٦ ـ رسائل الصاحب ٠

١٧ ـ رسائل البديع ٠

١٨ ـ رسائل الصابى ٠

١٩ ـ البخلاء للجاحظ ـ بتحقيق الجارم ٠

٢٠ ـ الحيوان للجاحظ ـ بتحقيق عبد السلام هارون ٠

٢١ ـ البيان والتبيين للجاحظ بتحقيق هارون ٠

٢٢ ـ المحاسن والأضداد للجاحظ ٠

٢٣ ـ المحاسن والمساوىء للبيهقى ٠

٢٤ ـ الخراج لقدامة ٠

٢٥ ـ احسن التقاسيم للمقدسى ٠

٢٦ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ٠

٢٧ ـ الأغانى لأبى الفرج ـ طبع دار الكتب ٠

٢٨ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة ـ طبعة دار الكتب ٠

٢٩ ـ الأخبار الطوال للدينورى ـ مصر ١٣٣٠ هـ ٠

٣٠ ـ الأمالى للقالى ـ طبعة دار الكتب المصرية ٠

٣١ ـ الأمتاع والمؤانسة للتوحيدى ـ طبعة مكتبة الحياة بيروت ٠

٣٢ - رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون ٠

٣٣ - تاريخ الاسلام للذهبى « طبعة مصر » ستة أجزاء ٠

٣٤ - تاريخ بغداد للبغدادى - ١٤ جزءا - طبعة القدسى ٠

٣٥ - تاريخ جرجان - للسهمى - حيدر آباد ١٩٥٠ ٠

٣٦ - تاريخ أصبهان لأبى نعيم - ليدن ١٩٣١ ٠

٣٧ - تاريخ الطبرى - طبع دار المعارف بمصر ٠

٣٨ - الكامل للمبرد - طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة ٠

٣٩ - فحول الشعراء للأصمعى بتحقيق المؤلف ٠

٤٠ - الصناعتين للعسكرى - طبعة عيسى الحلبى ٠

٤١ - معجم ما استعجم للبكرى - ٤ أجزاء - القاهرة ١٩٤١ ٠

٤٢ - تجارب الأمم لمسكويه ٠

٤٣ - البحوث الأدبية للمؤلف - طبع دار الكتاب اللبنانى ٠

٤٤ - الفهرست لابن النديم - طبعة مصر ٠

٤٥ - المكتبة الجغرافية - طبعة ليدن - ٨ مجلدات ٠

٤٦ - مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده - جزءان ٠

٤٧ - كشف الظنون لحاجى خليفة - طبعة المعارف التركية جزءان ٠

٤٨ - نهاية الأرب للنويرى - طبع دار الكتب المصرية ٠

٤٩ - صبح الأعشى للقلقشندى - طبع دار الكتب المصرية ٠

٥٠ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى - دار الكتب .

٥١ - دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة الانجليزية الجديدة فى الحديث عن أبى دلف - والترجمة العربية - طبع مصر - فى مواضع كثيرة تتصل بالبحث .

٥٢ - مقدمة ابن خلدون - المكتبة التجارية .

٥٣ - الجغرافيون العرب لصبرى محمد حسن - طبع النجف .

٥٤ - الجغرافيا والرحلات عند العرب - نقولا زيادة .

٥٥ - اعلام التاريخ والجغرافيا - المنجد - طبع بيروت .

٥٦ - شمس العرب تسطع على الغرب لهونكة - طبع بيروت .

٥٧ - العرب والملاحة فى المحيط الهندى - حورانى .

٥٨ - حديث السندباد القديم - حسين فوزى .

٥٩ - ابن فارس للأستاذ هلال ناجى - بغداد .

٦٠ - المجلة الجغرافية - مصر .

٦١ - تاريخ التمدن الاسلامى لزيدان .

٦٢ - الرواد نشر المقتطف .

٦٣ - الرحالة العرب - نقولا زيادة .

٦٤ - الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى - زكى محمد حسن .

٦٥ - الرحلات - دار المعارف - بقلم د. شوقى ضيف .

٦٦ - الجغرافيا عند العرب : يسن الحموى .

٦٧ - تاريخ الأدب الجغرافى العربى - كراتشوفسكى - نشر الجامعة العربية ·

٦٨ - جهود المسلمين فى الجغرافيا - نفيس أحمد - القاهرة ·

٦٩ - الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى - المؤلف ·

٧٠ - ابن المعتز - المؤلف ١٠٥٨ القاهرة ·

٧١ - أبو عثمان الجاحظ - المؤلف ١٩٦٣ القاهرة ·

٧٢ - مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته مازن المبارك ·

٧٣ - بلاد ينبع للعلامة حمد الجاسر - دار اليمامة بالرياض ·

٧٤ - بديع الزمان للشكعة - نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ·

٧٥ - بديع الزمان لمارون عبود ·

٧٦ - الكامل لابن الأثير - المنيرية ١٣٥٧ هـ ·

٧٧ - تاريخ اليعقوبى - بيروت - دار صادر ١٩٦٠ ·

٧٨ - المقامات لشوقى ضيف ·

٧٩ - الحياة الأدبية فى العصر العباسى - المؤلف ·

٨٠ - تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ·

٨١ - تاريخ آداب اللغة العربية - لزيدان ·

٨٢ - تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ·

٨٣ - ديوان صفى الدين الحلى ·

٨٤ - ديوان الشريف الرضى ·

٨٥ ـ الرسالة الثانية لأبى دلف ·

٨٦ ـ الأعلام للزركلى ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ ·

٨٧ ـ تاريخ خليفة بن خياط ـ النجف ١٩٦٧ ·

٨٨ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ـ ٣ اجزاء ·

٨٩ ـ مجلة قافلة الزيت عدد المحرم ١٣٩١ هـ ـ مارس ١٩٧١ ـ مقال عن ينبع ·

الى غير ذلك من المراجع التى اشرنا اليها فى هامش الكتاب والى غير ذلك من المراجع التى رجعنا اليها ولم نستفد منها كثيرا فى كتابة هذا البحث ·

وبالله التوفيق ··

فهرست الكتاب

صدر عن مكتبة الأنجلو المصرية

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٣٤ لسنة ١٩٩٦

الترقيم الدولى 7 - 1435 - 05 - 977

مطبعة

أبناء وهبة حسان

٢٤١ (أ) ش الجيش - القاهرة

ت : ٩٢٥٥٤٠


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET